

بُزْزَطَةُ الْمُتَخِيلَةِ  
اَسْرُوبُ لُوجِيَا نَارِيخِيَّةٍ لَدَا عَرِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ الْمُبَكَّرِ





دراسات فكرية (١٥)

# بِرْزَنَظَةُ الْمَيَّخِلَةِ اَنْرُوْبُوْجِيَا نَارِيْخِيَّةٌ لِّلْاَفْرَيقِيَّةِ فِي الْاِسْلَامِ الْمُبَكَّرِ

يُاسِيْنُ الْجِيَّايِي



نماء للبحوث والدراسات  
Namaa for Research and Studies

الفهرسة أثناء النشر، إعداد نماء  
للبحوث والدراسات  
اليحياوي/ ياسين (مؤلف)

بيزنطة المتخيلة (أنثروبولوجيا  
تاريخية للتأخية في الإسلام  
المبكر)

مؤلف: ياسين اليحياوي  
127ص، (دراسات فكرية)  
14.5×21.5 سم

رقم الإيداع: 4075/2021  
ISBN: 978-996-1982-74-7

١. التأخية. ٢. أنثروبولوجيا.  
أ. العنوان. ب. السلسلة.

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا  
تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر نماء»

حقوق الطبع والنشر محفوظة  
لنماء

© الطبعة الثانية، القاهرة / لبنان،  
2021م



نماء للبحوث والدراسات  
Namaa for Research and Studies

نماء للبحوث والدراسات

بيروت - لبنان

info@namaa-center.com

الرباط - المغرب

هاتف - فاكس: 00212808564831

موبايل: 00212688953384

القاهرة - مصر (نماء للبحوث والدراسات)

هاتف - واتس: 00201115533255

لطلبات الشراء البريدية: متجر نماء

www.namaa-store.com

namaa-store@namaa-center.com

هاتف: 00201101509898

واتس: 00201098489815



متجر نماء  
Namaa Store



## المحتويات

| الموضوع                                                                              | الصفحة |
|--------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| تقديم .....                                                                          | ٧      |
| الفصل الأول: حدود معرفة الآخر البيزنطي في التجربة النبوية .....                      | ٢٣     |
| مقدمة .....                                                                          | ٢٣     |
| أولاً: أفق العلاقات التجارية مع بيزنطة في التجربة النبوية .....                      | ٣١     |
| ١- الانتقال إلى يثرب والتحول من التجارة إلى الغزو .....                              | ٣٢     |
| ٢- خيار الغزو وأثره على العلاقات التجارية مع بيزنطة .....                            | ٣٥     |
| ثانياً: تداعيات الصراع العربي في الجزيرة العربية على إنتاج<br>مُتخيل عن بيزنطة ..... | ٣٧     |
| ١- تشكل هوية جديدة في الجزيرة العربية .....                                          | ٣٨     |
| ٢- الآخر المُهدد للأنا: بيزنطة باعتبارها خطراً على القوة الناشئة .....               | ٤١     |
| ٣- معركة مؤتة: ملحمة ضد عدو مُتخيل .....                                             | ٤٦     |
| ٤- معركة تبوك: علاقة الندية بين الأنا العربي والآخر البيزنطي .....                   | ٤٩     |
| خلاصة .....                                                                          | ٥٣     |

## الفصل الثاني: بيزنطة المُتخيلة: بين الاستعمالات اللغوية ورهانات

|                                                         |     |
|---------------------------------------------------------|-----|
| التوظيف                                                 | ٥٥  |
| مقدمة                                                   | ٥٥  |
| أولاً: بنية الآخريّة وموقع الآخر البيزنطي               | ٥٧  |
| ١- الثنائية الحديّة في الثقافة العربية الإسلامية        | ٥٨  |
| ٢- ثنائية روماني برابري وبنية الآخريّة عند العرب        | ٦٢  |
| ٣- بنية الآخريّة في الثقافة العربية الإسلامية           | ٧٠  |
| ثانياً: الاستعمالات اللغوية في بناء صورة الآخر البيزنطي | ٧٧  |
| ١- تسمية العرب للبيزنطيين                               | ٧٧  |
| ٢- الاستعمالات اللغوية في قراءة المظهر الخارجي          | ٨٥  |
| ثالثاً: رهانات الخطاب حول الآخر البيزنطي                | ٩٣  |
| ١- القسطنطينية: المدينة المُشتهاة                       | ٩٣  |
| ٢- الشام: أرض المؤمنين                                  | ٩٨  |
| خلاصة                                                   | ١٠١ |
| خاتمة                                                   | ١٠٣ |
| المصادر والمراجع                                        | ١٠٧ |
| العربية                                                 | ١٠٧ |
| الأجنبية                                                | ١١٣ |
| الملاحق                                                 | ١١٦ |
| فهرس                                                    | ١٢٥ |

## إهداء شكر

يوجب المقام بداية أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور عبد الحميد هنية أستاذ التاريخ بمعهد الدوحة للدراسات العليا، على ما قدّمه لي من توجيهات قيّمة وتعليقات مفيدة أثناء الإعداد الأوّلي للكتاب سمّحت لي أن أصل إلى هذه المرحلة من الرضى عن نتائج البحث؛ كما أتقدّم أيضًا بالشكر إلى الدكتور عبد الأحد السبتي أستاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس، على تجشّمه عناء قراءة هذا البحث في مسودته الأوّلي؛ وأيضًا أتوجه بخالص الامتنان إلى الدكتور الحسن الغريب أستاذ التاريخ الوسيط، الذي كان دائمًا -ولا يزال- يستقبلني بحفاوة كبيرة، فاسحًا المجال لمشاركة أفكار هذا البحث وقضاياها ونتائجها. ولا شك أن ما قد يشوب البحث من أخطاء، أتحمّل وحدي وزره ومسؤوليته.

أخيراً، لن يفوتني أن أشكر على الدوام الدكتور الراحل  
محمد الطاهر المنصوري، الذي كان اللقاء به أعظم مكافأة في  
مسيرتي العلمية، وكانت النقاشات معه بشأن مواضيع تخص  
الإسلام المبكر وتاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية الأساس  
الذي بُنيت عليه فرضيات هذا الكتاب وإشكالياته، ولا زلتُ أتذكر  
نُصحه في بدايات الإعداد للبحث بضرورة الاهتمام بالذهنيات  
والانتقال من التاريخ التقليدي إلى الأنثروبولوجيا التاريخية.  
وإن كنت أحزن على رحيله دون أن يقرأ هذا العمل المُتواضع،  
فعزائي الوحيد أنه سيقى بالنسبة إليّ مصدر تشجيع ومنبع إلهام.

إلى الروح الطاهرة لمحمد الطاهر المنصوري



## مُتَكَلِّمًا

إنَّ البحث عن صورة الآخر هو في حقيقته بحث عن الذات؛ بهذه الفكرة افتتح الفيلسوف السويسري تيير هنتش كتابه **الشرق المُتَخِيل** حين قال: «لا يُحدِّث هذا الكتاب عن الشرق، إنما يُحدث عنا»<sup>(١)</sup>. والأمر سيان في هذا الكتاب الذي نتقدم به بين يدي القارئ، إذ لا يُحدِّث عن بيزنطة، وإنما يُحدث عن الذات العربية، والكيفيّة التي تمثّلت بها الآخر البيزنطي.

هذا الاهتمام المُتزايد بمسألة الآخريّة سواءً في سياقنا العربي أو في السياق الغربي، دائمًا ما كان يتخذ مرجعية له سؤال الهوية، حتى وإن بدا غائبًا في الخطاب. ولعل من البديهي القول بأنَّ صورة الآخر لا تتشكّل في المُتَخِيل كمعرفة موضوعية، فهي انفعال مع الذات يتحدد بشكل أساسي من خلال ما يراه الأنا؛

---

(١) تييري هنتش، **الشرق المُتَخِيل**: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، ترجمة غازي بّرو و خليل أحمد خليل (بيروت: الفارابي، ٢٠٠٤)، ص ٩.

الشيء الذي يجعل منها صورة علائقية بامتياز، إذ لا يُمكن الحديث عن أحدهما بغياب الآخر، بل إنّ الذات لا تتحدد بدءًا إلا من خلال وضع نفسها في مُجابهة ذوات أخرى.

وسنُحاول من خلال هذا الكتاب دراسة مُتخيل بيزنطة عند العرب؛ وهو وإن كان يتخذ من الآخر موضوعًا له، فإنّ الذات تبقى حاضرة باستمرار؛ إذ من خلالها يجري إنتاج المُتخيل ومُختلف التمثلات. داخل هذا السياق حاولنا الاقتراب من سؤال الأخيرة في الثقافة العربية الإسلامية في لحظاتها التأسيسية الأولى، مُحددين إياها في الآخر البيزنطي. وستسمح لنا هذه العودة إلى الجذور بفهم آليات تشكّل بنية الأخيرة، التي تزامنت مع بداية وعي العرب بأنفسهم كقوة مهيمنة.

### ● أهمية البحث:

منذ اللحظات الأولى للعلاقات العربية-الإسلامية مع الإمبراطورية البيزنطية تشكّلت نظرة عن بيزنطة بوصفها الآخر العدو، والوحيد القادر على تهديد الإسلام، لاسيما بعد سقوط الإمبراطورية الفارسية في القرن السابع. سنُحاول إذن -من خلال هذا البحث- دراسة طريقة تشكّل صورة الآخر البيزنطي في المُتخيل العربي خلال فترة ممتدة من القرن السابع إلى الثامن الميلاديين (الموافق للقرن الأول الهجري إلى الثاني). ونروم من خلال ذلك تقديم مقارنة تاريخية جديدة، وتحليل للعديد من الجوانب التي تخصّ تشكّل صورة الآخر عند العرب. وهو مُتخيل



لم ينطلق من فراغ تاريخي، فقد كان العالم في محيط الجزيرة العربية على حراك مُستمر، سواء تعلق الأمر بالأنشطة التجارية أو بمُحاولة الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية توسيع نفوذهما العسكري.

أمّا التحديد الزمني للموضوع في القرن السابع والثامن الميلاديين فيعود إلى ما تحمله هذه الفترة من خصوصية، كونها ستشهد بدايات حركة التدوين وانتقال الذاكرة الجمعية من طور الشفاهة إلى الكتابة، بما تنضوي عليه هذه العملية من ترسيخ للتمثيلات عن الآخر.

#### ● حظه من الدراسات السابقة:

يَسْتَبْدِ الإطار النظري الذي نَنُطْلِقُ منه لدراسة موضوع بيزنطة المُتَخِيلَة على مجموعة من الدراسات التي وسمتُ البحث الأكاديمي حول موضوع الآخريّة. يبقى البحث مدينًا بصورة خاصة لبعض الدراسات التي سمحتُ لنا بالتزوّد بآليات دراسة بنية الآخريّة، والوعي بالحضور المُستمر للذات عند تصنيف الآخر؛ نقصد تحديدًا كتاب **الشرق المتخيل** لتيير هنتش (١٩٨٨)، وكتاب **نحن والآخر**ون لتزفيتان تودوروف (١٩٨٩)<sup>(١)</sup>. أما في السياق العربي، فإنّه بدءًا من تسعينيات القرن الماضي سيُوَجّه العديد من الباحثين العرب اهتمامهم نحو مسألة الآخريّة، غير أنّ اللافت

---

(١) Tzvetan Todorov, *Nous et les autres: La réflexion française sur la diversité humaine* (Paris: Editions du Seuil, 1989).

للاهتمام في هذه الدراسات اهتمامها بمسألة الآخريّة من خلال المصادر المكتوبة بعد القرن التاسع، وهي فترة عرفت حركة كثيفة في التدوين وظهور تصانيف جديدة كالتاريخ العالمي وكتب الرحلات والجغرافيا، فكانت من ثمّ مُدونة ضخمة من المعرفة حول الآخر. يندرج في هذا السياق العمل الذي قدّمه عزيز العظمة بعنوان **العرب والبرابر** (١٩٩١)<sup>(١)</sup>، حيث نقل فيه العديد من النصوص التي تُبرز موقف العرب من الآخر، مُعتبراً أن هذه المعرفة جرى بناؤها من خلال تراث أدبي وجغرافي وتاريخي، نتيجة احتكاك العرب بهذه الحضارات. يندرج أيضاً داخل هذا الاتجاه ما قدّمه خالد زيادة في كتابه **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا** (١٩٨٣)<sup>(٢)</sup>، ونخص بالذكر الفصول التي خصصها لمسألة الآخريّة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة خلال العصر الوسيط، إذ اعتمد أيضاً على مصنفات التاريخ العالمي وما دَوّنه الرحالة والجغرافيون ليُخلّص إلى أنّ العودة إلى الماضي وصولاً إلى الحاضر شكّل جزءاً من الوعي المُعاصر والشائع لدى غالبية المسلمين اليوم في تحديد صورة الآخر الأوروبي؛ فقد كان لوقع الاستعمار أثر في إعادة الذاكرة حول الحروب الصليبيّة، واسترجاع صورة الآخر العدو والمُهدد للذات. كما نُحيل أيضاً على مشروع محمد نور الدين أفاية الذي خصص جزءاً كبيراً من

---

(١) عزيز العظمة، **العرب والبرابرة: المسلمون والحضارات الأخرى** (لندن / قبرص: دار رياض الريس، ١٩٩١).

(٢) خالد زيادة، **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا** (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣).

كتبه ومقالاته لدراسة ما يتعلق بالمتخيل وثنائية الأنا والآخر، وما نود الإشارة إليه في هذا الصدد هو كتاب **الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الوسيط** (٢٠٠٠)<sup>(١)</sup>، حيث حاول النفاذ إلى بنية الآخرية والكشف عن آليات اشتغال التراث العربي الإسلامي في عملية تمثّل الآخر الغربي؛ ليخلص إلى أنّ هذا التراث قد أسهم -مع تواتر الزمن وملابسات التاريخ- في تشكيل صور نمطية لا زالت تُلقى ببعض ظلالها في زمننا الراهن، إذ للصور الماضية قدرة كبيرة على الاستمرار في الحاضر. ومن الدراسات المهمة في هذا الصدد ما قدّمته نادية ماريا الشيخ في كتاب بعنوان **بيزنطة كما رآها العرب Byzantium viewed by the Arabs** (١٩٩٢)<sup>(٢)</sup>، وهو عبارة عن دراسة لوجهة النظر العربية الإسلامية تجاه بيزنطة، حيث تعمّقت التطورات التي عرفتتها صورة بيزنطة عبر قرون من الحرب والاتصال والتبادل، مُبرزة كيف نظر العرب -بنوع من الإعجاب- للتنظيمات السياسية والعسكرية البيزنطية، حيث استمرت هذه التمثّلات إلى سقوط بيزنطة سنة ١٤٥٣. لا يُمكن أيضًا أن نغفل عن الأعمال العديدة التي قدّمها محمد الطاهر المنصوري، لا سيما مقال **صورة بيزنطة في المصادر العربية** (١٩٩٥)<sup>(٣)</sup> حيث حاول رصد الكيفية التي عبّر بها المؤرخون

---

(١) محمد نور الدين أفاية، **الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط** (الدار البيضاء / بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠).

(٢) Nadia Maria El-Cheikh, *Byzantium Viewed by the Arabs*, Harvard, Middle Eastern Monographs XXXVI (London: Harvard Center for Middle Eastern Studies, 2004)

(٣) Mohamed Tahar Mansouri, "L'image de Byzance dans les sources arabes," in :

والجغرافيون والرحالة العرب في العصر الوسيط عن الآخر البيزنطي، بالإضافة إلى العديد من المقالات الأخرى التي جُمعت في كتاب دراسات في العصر الوسيط حول بيزنطة والإسلام *Etudes médiévales: De Byzance et de l'Islam* (٢٠٠٩)<sup>(١)</sup>.

من خلال هذه المؤلفات النوعية لمؤرخين وباحثين مقتدرين، كيف نستطيع أن نُمَوِّع بحثنا بشكل يسمح بإبراز جدّته؟ يُمكن القول بأن الجديد الذي سنُقدمه للقارئ المُهمّتم بتاريخ الإسلام المُبكر وتاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية، يكمن في كون الكتاب يقتحم موضوع المُتخيل البيزنطي من خلال كُتب المغازي والسير؛ فكل الدراسات التي سبق وأشرنا إليها -ودراسات أخرى سنتناولها في متن الكتاب- تطرقت لصورة بيزنطة عند العرب من خلال كتابات تعود للقرن التاسع الميلادي، وهي مرحلة شهدت طفرة في التدوين وظهور مصنّفات جديدة لم يكن للعرب سابق معرفة بها، من ذلك الكتابة في التاريخ العالمي والمؤلفات المبنية على الرحلة والمُشاهدة، هذا ناهيك عن مؤلفات الأدب التي مزجت بين مُختلف العلوم والمعارف، كتلك التي قدّمها الجاحظ في القرن التاسع، أو أبو حيان التوحّيدي في القرن العاشر. إننا من خلال الرجوع إلى كتب المغازي والسير

---

Abdeljelil Temimi (ed), *Mélanges Louis Cardaillac*, (Zaghouan : Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information, 1995).

- (١) Mohamed Tahar Mansouri, *Eudes médiévales I: De Byzance et de l'Islam* (Mannouba: Publication de la Faculté des Lettres, des Art et des Humanité Mannouba, 2009).

نعود إلى اللحظات المؤسسة التي تشكل فيها الوعي العربي بالآخر البيزنطي، وهو ما سنتناوله بتفصيل أكثر دقة في ثنايا البحث.

وعلاوة على ذلك، فإنَّ ما سنُقدِّمه في هذا البحث رغم اقتصره على دراسة صورة بيزنطة، هو بمثابة مناقشة ونقد لأطروحة العظمة، الذي اعتبر أنَّ المصادر العربية الإسلامية في العصر الوسيط نظرتُ للآخر من خلال ثنائية العرب كذات والبرابرة كآخرين، فالى أي مدى يُمكن أن تُعبر هذه الثنائية عن بنية الأخيرة عند العرب؟ وما موقع بيزنطة منها؟ وهو ما سنُحاول الإجابة عنه في موضعه.

#### ● مدونة البحث:

يعتمد هذه الكتاب -كمدونة للبحث- على كتب المغازي والسير التي أُلِّفت إلى حدود بداية القرن الثاني الهجري، المُوافق للثامن الميلادي. إن الغاية من هذا التحديد تكمن في مُحاولتنا رصد بدايات تشكُّل صورة الآخر البيزنطي في واحد من أهم المصادر العربية وأوَّلها.

إنَّ كُتُبَ المغازي والسير هي في الأصل مُجمل الأخبار المُرتبطة بسيرة النبي ﷺ منذ ميلاده حتى وفاته، وقد أطلق المؤلفون الأوائل على كتاباتهم اسم **المغازي** للدلالة على الحروب التي خاضها النبي في المرحلة المدنية. كما أنَّ ارتباط هذه المُصنفات بلفظة مغازٍ أو سير يُشير إلى مدى أهمية المرحلة في التأسيس للذات العربية الإسلامية، لاسيما وأنَّها شهدت نجاح التجربة النبوية. كما تطرح مدونة البحث إشكالية الانتقال من الرواية الشفوية إلى الرواية

المكتوبة، وهي فترة امتدت إلى ما يُقارب قرنًا من الزمن<sup>(١)</sup>. غير أن البحث لن يتطرق للإشكاليات حول رواية أخبار المغازي وتدوينها، إذ سنعتمد على كتب المغازي والسير الأولى باعتبارها وثائق تاريخية تكشف عن بيزنطة المُتخيلة في اللحظة التي ألفت فيها.

جاءت إذن مُدونة البحث لتشمل كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي لابن إسحاق (ت. ٧٦٨م/ ١٥١هـ)، وهو من بين أقدم من ألف السيرة النبوية<sup>(٢)</sup>، واعتمدنا على النسخة التي حَقَّقها محمد حميد الله<sup>(٣)</sup>. كما تضم المُدونة السيرة النبوية لابن هشام (ت. ٨٣٣م/ ٢١٨هـ)<sup>(٤)</sup> وهي بمثابة نُسخة مُنقحة من سيرة

---

(١) يُنظر في هذا السياق دراسة قدمتها حياة عمامو، حاولت من خلالها رصد بدايات تشكل أدب السيرة والكيفية التي انتقل بها من الرواية الشفوية إلى الرواية المكتوبة، يُنظر في: حياة عمامو، «السيرة النبوية بين روايتها ومؤلفيها»، أسطور للدراسات التاريخية، ع. ٤ (يوليو ٢٠١٦)، ص ٢٥-٤٥.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الباحث سون أنتوني Sean Anthony أصدر سنة ٢٠١٤ تحقيقًا لكتاب المغازي لصاحبه معمر بن راشد من رواية تلميذه عبد الرزاق الصنعاني. تبرز أهمية الكتاب في تقديمه رواية أخرى معاصرة لما أورده ابن إسحاق، تسمح بعقد المقارنة مع كتب المغازي الأولى، وتتبع التطورات التي شهدتها رواية وتدوين السيرة النبوية. على أن كتاب معمر بن راشد، لا يُضيف جديدًا عمَّا قدَّمه ابن إسحاق بخصوص صورة الآخر البيزنطي، لاسيما وأنهما يشتركان في رواية العديد من الأخبار عن محمد بن شهاب الزهري. يُنظر:

Ma'mar Ibn-Rāšid, *The Expeditions: An Early Biography of Muhammad*, Sean W. Anthony (trans. & ed.), (New York: New York Univ. Press, 2014).

(٣) محمد بن إسحاق، سيرة ابن إسحاق المُسمَّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الله (الرباط: معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ١٩٧٦).

(٤) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥).

ابن إسحاق، عمد فيها ابن هشام إلى حذف وتصويب ما اعتبره خطأ في كتاب المبتدأ. كما اعتمدنا على كتاب المغازي لمحمد بن عمر الواقدي (ت. ٨٢٣م/ ٢٠٧هـ)<sup>(١)</sup> الذي ركز على نقل أخبار الفترة المدنية وما قام به النبي وأصحابه من غزوات وحروب مع العرب. يندرج أيضًا في مُدونة البحث كتاب الجامع لمعمر بن راشد (ت. ٧٧٠م/ ١٥٣هـ)<sup>(٢)</sup> وهو عبارة عن مجموعة من الأخبار عن النبي نقلها تلميذه عبد الرزاق الصنعاني في مُصنفه.

إنَّ أهمية الاعتماد على كُتب المغازي لدراسة الآخر البيزنطي -على الرغم من شح المعلومات الواردة فيها- يتجلَّى في كونها أول إسْطَوْغرافيا عربية، كما يُضاف إلى ذلك أنَّها أقرب المصنّفات للتعبير عن الذات وآمالها وطموحاتها. إنَّها أشبه بأيام العرب، تلك القصائد والأخبار التي تناقلها الناس قبل الإسلام، لكنها مع مجيء الإسلام صارت مُختزلة ومُركزة في شخص النبي مُحَمَّد ﷺ ومن جاء بعده من الخُلفاء. فكانت بذلك هذه المرحلة، التي جرى التعبير عنها في كتب المغازي والسير، بداية تشكل بنية الآخِرية في الثقافة العربية الإسلامية.

---

(١) محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس، ط ٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٤).

(٢) معمر بن راشد، كتاب الجامع، في: عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢ (بيروت: المكتب الإسلام، ١٩٨٣).

## • منهج البحث:

إنَّ أيَّ محاولة لرصد البدايات الأولى لتشكُّل المُتخيِّل العربي حول الآخر يجب أن تأخذ بالحسبان تطور الأفكار والتمثلات، مما يجعل دراسة صورة بيزنطة عند العرب بحثًا في تاريخ الذهنيات<sup>(١)</sup>؛ وهي مقاربة تسمح بفهم دينامية الجماعة العربية على إثر المُتغيرات التي طرأت على الجزيرة العربية بعد نجاح التجربة النبوية. كما تُحاول هذه المقاربة دراسة «النص الديني» من خلال البحث في أثر السياق التاريخي لمُدوّنه وللجماعة التي ينتمي إليها- على تشكّل هذا النص. إنها بالتالي عملية بناء قنطرة بين النص باعتباره وثيقة والسياق التاريخي والاجتماعي للمُدوّن. ومن خلال عملية عكسية فسيكون بمقدور الباحث أن يُعيد ترميم هذا السياق من خلال تحليل النص، مما يسمح بالكشف عن بنية الآخرة في الثقافة العربية الإسلامية.

## • إشكالية البحث وأسئلته:

تحدّد إشكالية البحث الأساسية في دراسة كيفية تشكّل المُتخيِّل العربي حول بيزنطة في فترة الإسلام المُبكر. وهي إشكالية على قدرٍ من التعقيد، إذ إنّ سؤال الآخر بما يحمله من مفاهيم حول الاختلاف والغريبة يُحيل في الوقت نفسه على الذات والهوية. داخل هذا السياق يُمكن تفكيك الإشكالية إلى مجموعة

---

(١) Hélène Ahrweiler, *L'image de l'autre: Étrangers - Minoritaires - Marginaux*, grand thème du 16e congrès international des sciences historiques, stuttgart 15 août-1er septembre 1985, [S.1]: s.n, (1985), p.2; cited in Nadia Maria El-Cheikh, p. 13-14.



من الأسئلة -ستُصاحبنا في ثنايا البحث- نُجملها كالتالي: ما هو السياق التاريخي الذي أسهم في تشكل هذا المُتخيّل؟ هل له رافد سابق؟ أم أنّه وليد لحظة التأسيس؟ وهل هو مُتخيّل واحد أم مُتخيّلات أُنتج كل واحد منها بناءً على سياق اجتماعي خاص؟ وكيف جرى التعبير عن الآخر البيزنطي؟ وما هي رهانات الفاعلين في إنتاجهم لهذا المُتخيّل؟

ترتبط هذه التساؤلات بموضوع الدراسة، وبُغية الإجابة عنها سيكون الكتاب وفق الخطة أدناه.

### ● خطة البحث:

بناءً على إشكالية البحث وأسئلته التي عرضناها آنفاً أقدمنا على تقسيم البحث إلى فصلين؛ حيث تناولنا في الفصل الأول إشكالية معرفة الآخر البيزنطي في التجربة النبوية وحدودها، وهو بمثابة دراسة للعلاقة العربية البيزنطية، ودواعي انتقالها من الجانب التجاري الذي ميّز فترة ما قبل الإسلامي إلى الصدام العسكري الذي ميّز الفترة اللاحقة. داخل هذا السياق، حاولنا أن نُبرز أنّ تطور المُتخيّل حول الآخر يعكس تطوراً في النظرة إلى الذات؛ فنجاح المشروع النبوي كان له أثرٌ بارز في ظهور هوية جديدة في الجزيرة العربية سمحت للعرب بأن يتخذوا موقف الندية أمام القوة المُحيطة بهم. ومن أجل تأكيد هذه الفكرة جرى تقسيم الفصل إلى مبحثين، تطرقنا في الأول إلى أفق العلاقات التجارية مع

بيزنطة في التجربة النبوية، وحاولنا في الثاني رصد تداعيات الصراع العربي في الجزيرة العربية على إنتاج مُتخيّل.

وفي الفصل الثاني جرى التطرق للتصنيفات التي جاء استعمالها في كتب المغازي والسير عند الحديث عن الآخر البيزنطي، مع رصد رهانات وتوظيفات هذا الخطاب. وقبل ذلك حاولنا تحديد بنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية وموقع الآخر البيزنطي منها، مُحاولين من خلال ذلك أن نُجَنّب البحث السقوط في الثنائية الحدية، في الوقت نفسه الذي تسمح بإنارة جوانب مُهمّة من استعمالات ورهانات الخطاب الوارد في كُتب المغازي والسير. جاء إذن هذا الفصل مُقسماً إلى ثلاثة مباحث؛ جعلنا الأول لدراسة بنية الآخرية وموقع بيزنطة منها، وخصصنا الثاني للاستعمالات اللغوية في بناء صورة بيزنطة، وخصصنا الثالث لرهانات الخطاب حول بيزنطة.

وأخيراً ذيلنا البحث بخاتمة تضمّنت النتائج التي توصلنا إليها على مدار الفصلين، واعتبرناها مُحاولّة لجعل بيزنطة المُتخيّلة كما وردت في كتب المغازي والسير أكثر قابلية للفهم والتعقل بشكل يُمهّد لدراسات أخرى تتناول صورة بيزنطة من خلال امتداداتها الزمنية في العصر الوسيط بعد القرن الثامن الميلادي، وترصد آليات اشتغال بنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية.

## الفصل الأول

### حدود معرفة الآخر البيزنطي في التجربة النبوية

#### ● مقدمة

لا نُحاول من خلال هذا الفصل إعادة كتابة تاريخ العلاقة بين العرب وبيزنطة في فترة الإسلام المبكر، وإنَّما الهدف هو تتبع اللحظات المؤسسة لميلاد تمثيلات جديدة حول بيزنطة في الأدبيات العربية الأولى - المغازي والسير. إنَّ هذا التقصي التاريخي هو تتبع ذو منحنيين؛ فميلاد صورة الآخر هو أيضًا بداية وعي بالذات وبتفوقها وقُوَّتها العسكرية والسياسية في مُواجهة القوى المُجاورة والقريبة منها. ومن ثَمَّ فإنَّ ثنائية الأنا/الآخر وتحديدًا عرب/ بيزنطة (روم)<sup>(١)</sup> ستعرف مسارًا جديدًا مع هذه

---

(١) تعود أولى استعمالات مصطلح بيزنطة للدلالة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى القرن السابع عشر في إطار الصراع بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الإسبانية، وأول من استعمل هذا التمييز هو المؤرخ الفرنسي شارل دو كانج =

الأحداث التاريخية؛ لذلك سيجري التركيز على دراسة حدود المعرفة ببيزنطة في التجربة النبوية التي جعلت العرب لأول مرة في تاريخهم يرون أنفسهم ندًا للإمبراطورية البيزنطية. على أن هذا الاحتكاك لا يُسعف كثيرًا في التأكيد على معرفة دقيقة للمسلمين الأوائل ببيزنطة، الشيء الذي يجعل من التمثلات الناشئة لا تُعبّر عن الآخر كما هو، وإنّما عن الآخر كمتخيل، ثم إنّ هذه التمثلات لا تعلمنا عن المتخيل بقدر ما تُعلمنا عن الذي يتخيل.

إنّ صعوبة أساسية قد تعتري البحث تكمن في التركيز على المصادر العربية الإسلامية، وعلى أحداث تاريخية مُحددة تبدأ من نشأة الإسلام بشكل تبدو معه كعملية قطع مع فترة ما قبل الإسلام، وكدراسة انتقائية تتكلّف الربط بين مجموعة من الأحداث. فبخصوص الأولى سيكون الاعتماد على المصادر العربية الإسلامية أمرًا مُبررًا من جهة طبيعة الموضوع كون البحث هو دراسة في المتخيل العربي حول بيزنطة؛ فيكون من ثمّ رافده هو الخطاب العربي، وهو ما جرّث تغطيته من خلال الاعتماد على مصادر أولية -المؤرخة للأحداث- وتحديدًا كتب المغازي والسير، بيد أنّ إنارة ثغرات تتركها مصادر المغازي والسير بشأن بعض الأحداث التاريخية يحتاج تنوع المصادر، وهو ما حاولنا القيام به قدر المُستطاع، من خلال الاعتماد

---

= Charles Du Cange (ت. ١٦٨٨)، وسيُصبح المصطلح شائعًا في مجال الكتابة التاريخية للتمييز بين الإمبراطورية الشرقية والممالك التي ظهرت غرب أوروبا.

على المصدرين الأساسيين لأحداث القرن السابع الميلادي في الإمبراطورية الرومانية، وهما حوليات ثيوفان المُعرّف Theophanes the Confessor (ت. ٨١٨م)<sup>(١)</sup> وحوليات البطريك نقفوز الأول القسطنطيني Nikephoros I of Constantinople (ت. ٨٢٨م)<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من تطرقهما لجانب من صراع الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين -خصوصاً مع الأمويين

---

(١) Theophanes, *The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History, A.d. 284-813*, Cyril A. Mang & Roger Scott & Geoffrey Greatrex (trans), (Oxford: Clarendon Press, 1997).

(٢) حسب المسح الذي قدّمه جواد العلي للإسطوغرافيا البيزنطية، نلاحظ فراغاً في الكتب التي عُنْتُ بالتأريخ للأحداث منذ Theophylactus Simocatta المُتوفى سنة ٦٤٠م إلى ثيوفان المُعرّف Theophanes the Confessor المُتوفى سنة ٨١٨م، أي أن أحداث القرن السابع والتي شهدت ميلاد الإسلام وبداية احتدام الصراع في العلاقات العربية البيزنطية لم تُنقل إلينا عن طريق شهود عيان وإنما من خلال روايات سيّدونها بعد قرن من الزمن ثيوفان المعرف في حولياته؛ وهو أمر يُمكن تبريره بالنظر إلى كون القرن السابع شهد في الإمبراطورية البيزنطية العديد من الأزمات السياسية ومقتل عدد من الأباطرة الرومان وعزلهم في فترة وجيزة، الشيء الذي سيؤثر أيضاً على الحراك الثقافي في هذه الفترة.

للاطلاع على المسح الذي قدّمه جواد العلي يُنظر: جواد العلي، **المُفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط ٢ (بغداد: [د. ط.]، ١٩٩٣)، ج ١، ص ٦٤. وقدّم المؤرخ الإنجليزي جيمس هوارد جونستون دراسة مُهمّة للإسطوغرافيا البيزنطية والعربية حول القرن السابع وتطرق في فصول منها بنقد للمصادر السالفة الذكر -ثيوفليكت وثيوفان ونقفوز-، يُنظر:

James Howard-Johnston, *Witnesses to a World Crisis: Historians and Histories of the Middle East in the Seventh Century* (Oxford: Oxford University Press, 2011), p. 192-312.

والعباسيين- فهما لم يهتما بالإسلام المبكر إلا مع فترة حُكم أبي بكر التي بدأ معها التوغل العربي في التخوم<sup>(١)</sup> البيزنطية

(١) تجدر الإشارة إلى أننا في البحث نُفرق بين التخوم والحدود، وقد انتبهنا إلى استعمال عدد من المؤرخين العرب المُعاصرين للفظه حدود عند الحديث عن المناطق الجغرافية الفاصلة بين قوتين سياستين، من قبيل الإمبراطورية البيزنطية ونظيرتها الأموية أو العباسية، باعتباره خط طول لا عرض فيه. وهو استعمال ينضوي على مفارقة تاريخية؛ إذ ارتبط استعمال لفظه حدود -بهذا المعنى الجديد- مع ظهور مفهوم الدولة المجالية، واستُعمل في أوروبا مع بداية تكوّن الدولة الحديثة، وله استعمالات قريبة من هذا المعنى مع إرهاصات ظهور وعي بالدولة المجالية في بلدان المغرب، وخاصة تونس التي نجد فيها استعمال لفظه «الحدادة» لتحديد المجال التراي الذي يجري حيازته من طرف السلطة المركزية. في حين تتحدث الأدبيات العربية والإسلامية في الفترة الوسيطة عن التُخوم، باعتبارها أبعد المناطق عن النفوذ المركزي وأقربها للعدو، ومن ذلك ما نقله ابن منظور في معجمه، ومع استعمال هذه الأدبيات للفظه حدود فإنها تُوظف بمعنى التُخوم. وقد تضم التُخوم مجموعة من الثُغور، والثُغر هو موضع المخافة من أطراف البلاد كما يذكر صاحب لسان العرب، أي أنه جزء من التُخوم، يمتاز عن هذا المجال بكونه منطقة اللقاء العسكري بين الطرفين، ومن ذلك ما ذكره قدامة بن جعفر عند الحديث عن ثُغور الإسلام من جهة بيزنطة مُميّزًا إياها عن الأراضي البعيدة -أي التُخوم-.

يُنظر: قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١)، ص ١٨٥؛ محمد ابن منظور، لسان العرب، ط ٣ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٤)، ج ١٢، ص ٦٤/ ج ٤، ص ١٠٣. مادة: ت خ م/ مادة: ث غ ر؛ عبد الحميد هنية، «بناء الدولة المجالية في البلاد التونسية والمغرب الأقصى وآليات الاندماج فيها في الفترة الحديثة»، في: مجموعة مؤلفين، جدلية الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، مجموعة مؤلفين (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤)، ص ١٧٢-٢٠٧.

والفارسية، وما حققه ذلك من انتصارات عديدة لفتت إليهم الأنظار<sup>(١)</sup>، وهو ما يُشير إلى كون الإسطوغرافيا البيزنطية لم ترَ في القوة الحجازية الناشئة أمرًا يستحق الحديث عنه أو التأريخ لعلاقاتها مع الإمبراطور<sup>(٢)</sup>، إلا أنَّ الأهم بالنسبة إلى إشكالية هذا الفصل هو أن تأريخها للحرب بين بيزنطة وفارس يسمح لنا بفهم السياق التاريخي لبداية الصراع بين عرب الحجاز وعرب الشام المُوالين لبيزنطة.

أما بخصوص النقطة الثانية فسيكون من الصعب تبرير الانتقائية وتقديم شرحٍ كاملٍ للإطار النظري الذي ننطلق منه؛ إذ لن يستوعب الفصلُ إجراءً مسحٍ للعلاقات العربية البيزنطية في عهد الإسلام المُبكر، أو العودة إلى جذور هذه العلاقات ما قبل

---

(١) يُنظر على سبيل المثال حوليات ثيوفان، حيث سيبدأ بسرد الأحداث حول العرب بدءًا من سنة ٦٣٠م، مُعتبرًا إياها سنة وفاة محمد ﷺ، ثم سيستتبعها بذكر الأحداث الخاصة بخلافة أبي بكر وعمر وغيرهما من الخلفاء، مُركِّزًا بشكل خاص على المعارك التي خاضها العرب ضد بيزنطة واقتطعوا فيها من مجالهم:

Theophanes, p. 464-477.

(٢) نستثني من هذا النوع من المصادر حوليات سيرت Chronicle of Seert المعروفة أيضًا بالتاريخ النسطوري، والتي تعود لمسيحي نسطوري مجهول الاسم، ألفه تحت ظل الخلافة العباسية.

يُنظر:

*Histoire Nestorienne: Chronique de Séert*, Addaÿ Scher (trans.), Paris: Ed.

Brepols, 1950); Howard-Johnston, p. 324-330.

الإسلام، ومع ذلك سيكون من المُهم الإحالة على بعض الأعمال التي اعتمدنا عليها في وصل تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده؛ للوقوف على مدى تأثير التغيرات التي شهدتها مُختلف البنيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على البنية الذهنية، وتحديدًا على الآخر المُتخيل، لاسيما وأننا لا نتبنى فكرة التحقيب باعتباره انقطاعًا تاريخيًا بين فترة ما قبل الإسلام وما بعده، أو عُزلة للجزيرة العربية عن المؤثرات الخارجية. يُمكن في هذا الصدد الإحالة على ما ذكره صالح أحمد العلي في كتابه **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**<sup>(١)</sup> وذلك عند الحديث عن العلاقات بين العرب وبيزنطة التي كانت تتمحور بشأن الجانب التجاري، باعتبار مكة محطة تجارية مُهمة للقوافل القادمة من الهند واليمن والمتوجهة نحو بيزنطة<sup>(٢)</sup>، وهو أيضًا ما ذكره مونتغمري وات عند تطرقه للعلاقات الخارجية لمكة في فترة ما قبل الإسلام<sup>(٣)</sup>. وفيما يخص العلاقات السياسية لم يكن العرب فاعلين بقدر ما كانوا متأثرين بنتائج الصراع الفارسي البيزنطي على النفوذ، وهو ما عالجه روبرت هُيلند Robert Hoyland في كتابه **الجزيرة العربية والعرب**، إذ عرض جانبًا مُهمًا من العلاقات

---

(١) صالح أحمد العلي، **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**، (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٠).

(٢) العلي، ص ١٣١-١٣٨.

(٣) مونتغمري وات، **محمد في مكة**، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، ص ٦٤-٧٠.



السياسية في القرن السادس والسابع الميلادي<sup>(١)</sup>. كما يُمكن أيضًا الإحالة على الكتاب الغني والكثيف بالمعلومات لعرفان شهيد حول علاقات العرب ببيزنطة في القرون الأربعة الأولى للميلاد، خصوصًا ما يتعلق بالجانب العسكري لعرب الشمال وتجنيدهم في جيش الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية<sup>(٢)</sup>، مما يسمح بالوقوف على السياق السياسي والاجتماعي لهذه المنطقة وحيثيات صراعها مع عرب الحجاز عند ظهور الإسلام.

وإن كان الفصل يُركز على فترة الإسلام المُبكر فإنَّ ذلك يرجع لكونها لحظة فارقة في تاريخ العرب، فما قام به النبي محمد ﷺ كان أمرًا جديدًا وغير مسبوق على الإطلاق في التاريخ العربي المديد<sup>(٣)</sup>؛ كما يُضاف إلى ذلك أنَّه لأول مرة في تاريخ الأديان استطاع دين توحيدى أن يُقيم لنفسه نظامًا سياسيًا زمن حياة مؤسِّسه، بل وأن يبسط سلطته بعد وفاة المؤسس وفي مدة زمنية وجيزة على مساحة جغرافية شاسعة، ويُقصي ويُزاحم

---

(١) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the coming of Islam* (London/ New York: Routledge, 2001), p. 27-32, 49-57, 78-83;

روبرت هُيْلند، تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام ٣٢٠٠ ق.م-٦٣٠ م، ترجمة عدنان حسن (دمشق: قدمس، ٢٠١٠)، ص ٥٢-٥٧، ٧٥-٨٤، ١٠٨-١١٤.

(٢) عرفان شهيد، روما والعرب: مقدمة في دراسة العلاقات بين بيزنطة والعرب، ترجمة قاسم محمد سويدان (دمشق: دار كيوان، ٢٠٠٨).

(٣) هشام جعيط، مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، في السيرة النبوية ٣ (بيروت: دار الطليعة، ٢٠١٥)، ص ١١.

الإمبراطوريات المسيطرة آنذاك، كما حدث للإمبراطورية الفارسية التي هزمها ودعّم نظامه على أنقاضها، وكذلك الإمبراطورية البيزنطية التي زاحمها في مجالها وانتزع منها العديد من المُدن الكبرى Metropolis؛ ففرض بذلك سُلطته من خلال إقصاء كل السلط التي كانت تُزاحمه أو تُعاديّه أو تهدده.

لا يُمكن إذن أن نغفل عن كون اللحظة النبوية هي بداية النظر إلى الذات ثم إلى الآخر<sup>(١)</sup>، إذ بدأت معها تتشكل هوية جديدة وإرادة للقوة والسيطرة لم يكن للعرب سابق عهد بها، وكانت مُحركًا لحركات التوسع والاحتكاك بالآخر. فهي من ثم تُمثل جذور الصراع بين الطرفين، الذي سيستمر إلى سقوط الإمبراطورية البيزنطية في القرن الخامس عشر.

داخل هذا السياق سنُحاول اختبار حدود معرفة الآخر البيزنطي في التجربة النبوية من خلال مُحدّدَيْن أساسيين:

أولها الجانب التجاري باعتباره تجربة لها تاريخ مديد قبل الإسلام واستمرت بعده، لكن إلى أي حدّ ساهمت في تكوين مُتخيل عن بيزنطة؟

والثاني هو الجانب العسكري الذي تعود مُسبباته إلى انغلاق التبادل التجاري بين عرب الحجاز وعرب الشام نتيجة تدهور دور مكة كمحطة للقوافل التجارية، مما أدّى إلى حصول احتكاكات

---

(١) أفاية، ص ٤٥-٥٠.

عسكرية بين المسلمين وعدد من قبائل عرب الشام الذين يُحال عليهم في سرديات المغازي والسير باعتبارهم حلفاء بيزنطة، وأحياناً يتماهون معهم، وسيؤدي هذا الاحتكاك إلى تكوّن مُتخيل جرى التعبير عنه في الخطاب النبوي، واستمر في شحذ الصورة والتمثيلات طيلة فترة الحروب ضد الإمبراطورية البيزنطية زمن الأمويين والعباسيين.

### أولاً: أفق العلاقات التجارية مع بيزنطة في التجربة النبوية

تُعتبر مكة من بين أهم المراكز التجارية في منطقة الحجاز، وكانت إلى القرن السابع الميلادي نقطة وصل بين الهند واليمن من جهة وبين الأقاليم البيزنطية وفي مقدمتها الشام من جهة ثانية<sup>(١)</sup>؛ لتقف عند مدينة أيلة Eilat<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم من أنّ العديد من كتب السير والمغازي أشارت إلى رحلات محمد ﷺ التجارية من مكة إلى الشام فإنّ الغرض من توظيف هذه الروايات سواءً من طرف ابن إسحاق<sup>(٣)</sup> أو فيما رواه عنه ابن هشام<sup>(٤)</sup> وغيرهما هو وصل التاريخ الإسلامي بالتاريخ المسيحي من خلال

---

(١) العلي، ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة: دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٧)، ص ٤٧.

(٣) ابن إسحاق، ص ٥٩-٦٢.

(٤) ابن هشام، ص ١٨٧-٢٠٤.

التأكيد على نبوة محمد ﷺ اعتمادًا على أدلة خارجية مُتمثلة في شهادات الأحرار والرهبان. ولا تُشير هذه الروايات لأي حديث عن بيزنطة أو منطقة الشام ولو بشكل عرضي، سواء تعلق الأمر بتوصيف لطبيعة هذه الأراضي وساكنتها أو ذكر لأحوالها الاقتصادية والاجتماعية؛ لذلك سيجري التركيز بشكل أساسي على مرحلة هجرة النبي ﷺ نحو يثرب إلى وفاته. فهل شكلت هذه المرحلة الجديدة مُنعطفًا يسمح بتتبع متخيل حول بيزنطة من خلال العلاقات التجارية مع الشام؟ أم أنَّ قرار الغزو وقطع الطريق التجارية الرابطة بين مكة والشام كان بمثابة بداية التحول في التمثلات عن بيزنطة؟

## ١- الانتقال إلى يثرب والتحول من التجارة إلى الغزو

لن نتحدث مصادر السير والمغازي عن الموارد الاقتصادية للنبي ﷺ وأصحابه خلال الفترة المكية -من مبعث النبي ﷺ إلى الهجرة نحو يثرب- إلا إذا ما استثنينا بعض الصحابة الذي عُرفوا بمُزاولتهم للتجارة، غير أنَّ فترة الانتقال إلى يثرب يُمكن أن نلاحظ فيها الاهتمام الكبير الذي ستُولى المصادر للجانب الاقتصادي، والذي يُمكن إرجاع بداياته مع معركة بدر والسياق التاريخي الذي رافقها؛ إذ تسمح بتكوين صورة عن اقتصاد الجماعة المسلمة الأولى، وأيضًا عن موقفها من القوافل التجارية المُتوجهة إلى التخوم البيزنطية.

لقد شهدت هذه الفترة الأخيرة تطورًا كبيرًا حققه النبي ﷺ في مسار دعوته بعد أن استطاع تأسيس لبنة أولى لجماعة بمدينة

يُشربُ تُؤْمَنُ بدعوته وبمشرّوعه. كان من الضروري أمام هذا التطور السياسي البحث عن مورد اقتصادي يسمح بتطوير هذه القاعدة وتنميتها، خصوصاً وأنَّ أغلب المُهاجرين شكلوا فئة اجتماعية مُعوزة، وكما يذكر عبد الإله بلقزيز عند الحديث عن اقتصاد المدينة: «إنَّ الذين شدُّوا رحالهم مع النبي ﷺ مهاجرين إلى يثرب لم يكن لديهم ما يخسرونه من مغادرتهم مكة سوى عبوديتهم لأسيادهم»<sup>(١)</sup>، ولطالما كان ذلك مبعث استهانة وسُخرية كبار قريش من النبي ﷺ ودعوته التي لم تجد إلا العبيد والفقراء والمُسْتَضعفين ليؤمنوا بها<sup>(٢)</sup>.

إن السعي إلى تحسين وضع المُهاجرين كان ضرورة مُلحة؛ حتى لا يُصبح وجود النبي ﷺ وأصحابه عالة على أهلها وفوق ما تسمح به قدرتهم الاقتصادية على استيعابه، لاسيما وأنَّ نظام المؤاخاة لا يسمح بتأمين استقرار المُهاجرين في يثرب وبقائهم فيها على المدى البعيد. وبالنظر إلى سياق منطقة الحجاز ويثرب فإن الاختيارات البديلة لن تحيد عن ثلاثة موارد.

الخيار الأول هو الانخراط في اقتصاد زراعي، إذ خلافاً لمكة التي امتازت بنشاطها التجاري فإن اقتصاد يثرب قام أساساً على الزراعة؛ نظراً إلى موقعها بين الواحات. غير أنَّه يظل

---

(١) عبد الإله بلقزيز، تكوين المجال السياسي الإسلامي: النبوة والسياسة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥)، ص ١٦٢.

(٢) ابن هشام، ص ٣١٧.

اقتصادًا معاشيًا بالكاد سمح لقبيلتي الأوس والخزرج بالاستقرار، ولن يكون بمقدوره استيعاب ساكنة جديدة. يُضاف إلى ذلك أن المهاجرين من مكة سيصعب عليهم التأقلم مع النشاط الزراعي القائم في يثرب<sup>(١)</sup>، نظرًا إلى قلة خبرتهم بشؤون الزراعة، وأيضًا لصعوبة تملك أراضي فلاحية هي بالكاد تكفي ساكنتها.

أما الخيار الثاني، فيتجلى في جعل يثرب محطة تجارية وربطها بالخط التجاري المُتجه إلى منطقة الشام وبيزنطة، وهو الأمر الذي يصعب تحقيقه بالنظر إلى الإمكانية الجغرافية والاقتصادية ليثرب، وأيضًا لأنَّ عرب الشمال رأوا التجارة مع مكة وعائلاتها الغنية أكثر ربحًا ومصلحة منها في يثرب؛ لذلك سيكون صراع المصالح سببًا أساسيًا في تدهور الأوضاع بين القبائل المنتشرة في المناطق المُتاخمة لحدود بيزنطة الجنوبية وبين النبي ﷺ وأهل يثرب - وهو ما سنتطرق له عند الحديث عما يُمكن أن يُجلبه هذا الصراع العسكري من معرفة بالآخر البيزنطي - كما أنَّ فتح طريق تجارية ومزاولة التجارة مع الشام سيُعدُّ تحديًا لسيطرة قريش على هذه المسالك، ومن ثمَّ سيقود لا محالة إلى الصدام بين يثرب ومكة<sup>(٢)</sup>؛ لذلك كان انغلاق الأفق الاقتصادي دافعًا للجوء إلى خيار الحرب والغزو الذي لم يعد بالإمكان تجنبه.

---

(١) بلقزيز، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) نبيل فازیو، الرسول المُتخيل: قراءة نقدية في صورة النبي في الاستشراق (بيروت: متدئ المعارف، ٢٠١١)، ص ٢٤٨.

لم يبق إذن إلا مورد أخير سيُشكل الدعامة الأساسية لاقتصاد المجتمع المسلم، وهو شن الغزوات على القوافل التجارية وعلى قبائل البدو التي كانت تُهدد مُحيط يثرب.

## ٢- خيار الغزو وأثره على العلاقات التجارية مع بيزنطة

يظهر إذن أن الخيار الثالث المتمثل في شن الغزوات وقطع الطريق على القوافل التي تربط مكة بالشام كان خيارًا اقتصاديًا وسياسيًا في آنٍ واحدٍ معًا، إذ يرتبط تحديدًا بالرهان السياسي للمشروع الديني لمحمد<sup>(١)</sup> ﷺ؛ بل يذهب محمد عابد الجابري<sup>(٢)</sup> إلى أنَّ اعتراض قوافل قريش التجارية وضرب حصار اقتصادي على مكة وصولًا إلى استسلامها السياسي ثم دخولها في الإسلام هو الدافع الأساسي للهجرة إلى يثرب، ذلك أن العامل الاقتصادي هو السبب الوجيه في معارضة قريش لدعوة محمد، ومن ثم كان مستقبل الدعوة رهين ضرب هذا الاقتصاد ثم الاستيلاء عليه وتوظيفه. بهذا التخطيط بدأ النبي ﷺ من خلال معركة بدر تهديد أهم مورد اقتصادي لحاضرة مكة، وأن يضع أولى الخطوات من أجل إنهاكها اقتصاديًا، مما سيُمهّد لاحقًا لفتحها، لاسيما وأن أسلمة مكة وأيضًا الحواضر الكبرى في الحجاز كان رهانا أساسيًا من أجل

---

(١) فازيو، ص ٢٤٩.

(٢) محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته، نقد العقل العربي ٣، ط ٤ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠)، ص ١٠٠.

إنجاح المشروع الجديد<sup>(١)</sup>. غير أن المُضي في السرايا والغزوات لا يسمح وحده بمركزة سياسية وتطوير نظام اقتصادي قارّ، لذلك ستُشكل الهبة دعامة إضافية لاقتصاد المدينة<sup>(٢)</sup>، وسيُنقل من مُستوى التبرع الطوعي إلى مُستوى الضريبة الإلزامية على المسلم بوصفها زكاة، وعلى غير المسلم بوصفها جزية.

تسمح هذه المُعطيات حول الوضع الاقتصادي الجديد للمجتمع المسلم بيشرب بتتبع التحولات التي ستطرأ لاحقاً على مُتخيل المسلمين حول بيزنطة، وذلك من خلال مُحدّدين أساسيين؛ الأول: أن نمط الاقتصاد الذي يعتمد على الضريبة - الزكاة والجزية - وعلى غنائم الحرب سينتج عنه موقف سلبي من التجارة مع الشام، أما الثاني: فإنَّ المركزة الاقتصادية والسياسية ستؤدي سريعاً إلى اشتداد قوة المسلمين، ومن ثمّ تيسير تأسيس قوة عسكرية لم يكن لمنطقة الحجاز سابق عهد بها «إذ لم نعد أمام جيش من المتطوعين غير المُنظمين إلا في إطار الولاء القبلي، بل صرنا أمام جيش منظم وفق مبدأ الانتماء إلى الأمة»<sup>(٣)</sup>؛ ليصير معه الاهتمام بالجانب العسكري على قدر كبير من الأهمية، وهو ما تؤكد كُتب المغازي التي تحدثت عن الطريقة التي كان النبي محمد ﷺ يُوجه بها خمس

---

(١) جعيط، ص ١٨٤.

(٢) فازيو، ص ٢٤٩.

(٣) نفسه، ص ٢٥٠.



الغنائم لشراء الخيل والسلاح، كما حدث في غنائم غزوة بني قريظة<sup>(١)</sup>.

إنَّ هذا التحول الاقتصادي والانتقال من التجارة إلى الضريبة والغزو يؤكد على أنَّ باب معرفة الآخر البيزنطي من خلال التبادلات التجارية - بما تحمله من طرق سلمية لنقل المعرفة والتمثلات - قد جرى إغلاقه في الفترة النبوية، ليجري تعويضه بمُتخيل عن بيزنطة ينحو إلى الهيبة والخوف في بدايات الصراع، ثم إلى الندية والمُنافسة بعد أن وعى العرب ذاتهم وآمنوا بتحقيق الأنا الفاعل في مُحيطه والقادر على مُواجهة الجيش البيزنطي.

### ثانيًا: تداعيات الصراع العربي في الجزيرة العربية على إنتاج مُتخيل عن بيزنطة

لقد كانت علاقة العرب مع محيطهم - سواءً مع الإمبراطورية الفارسية أو البيزنطية - تتمحور بشكل أساسي حول التجارة، وهي ليست علاقة ندية؛ فقد اكتفى العرب بدور الوساطة بين الإمبراطوريات والممالك المُحيطة بهم. في الوقت نفسه لم يكن يجمع عرب الجزيرة رابط مُوحد، فالانتماءات القبلية كانت أشد قوة من الانتماء الإثني، ولم تكن مُقارنة حالهم بالحضارات المُجاورة كالفرس وبيزنطة إلا مدعاة إلى خفوت الذات واحتقارها. إلا أنَّ فترة الإسلام المُبكر يُمكن اعتبارها بداية

---

(١) الواقدي، ج ٢، ص ٥٢٣.

تشكّل للهوية الجديدة، ستتغير معها نظرة العربي لذاته، وسينتج عنها أيضًا تغير مُهم في النظرة للآخر. فببزنطة ما عادت تلك الإمبراطورية المُهابة عندما أوصى النبي محمد ﷺ قبل وفاته ببعث جيش إلى التخوم التي تفصل الجزيرة العربية عن الشام. سنحاول في هذا الجزء من البحث، تتبع اللحظات التاريخية التي تبلورت معها هوية جديدة في الجزيرة العربية، وكيف بدأ الاحتكاك مع الآخر البيزنطي يتجه شيئًا فشيئًا نحو الندية.

### ١- تشكل هوية جديدة في الجزيرة العربية

لم يكن الإسلام لينتصر في حياة مؤسسه لولا وجود قوة عسكرية تدعم دعوته وتردع الحواضر العربية التي حاربتة، لقد أصبح محمد ﷺ واعيا بذلك منذ هجرته إلى المدينة وعدم قدرته على استمالة اليهود والمسيحيين إلى الدين الجديد الذي اعتبره تمييزًا لمسار اليهودية والمسيحية، يقول هشام جعيط في هذا الصدد: «إن تغيير المنظور الذي كان قد أجراه منذ العام الثاني للهجرة لصالح العمل العسكري -والموظف دائما في خدمة الدين- قد ظهر أنه الخيار الوحيد الصالح لهداية العرب ومن ثم لإصلاحهم»<sup>(١)</sup>. وبالفعل استسلمت مكة بعد ثمان سنوات من هجرة محمد ﷺ، أي سنة ٦٣٠ ميلادي، وذلك بعد تطورات جوهرية في الأحداث من معركة بدر (٦٢٤م) التي فرضت الخيار العسكري على

---

(١) جعيط، ص ١٥.

المُهَاجِرِينَ مَرُورًا بِمَعْرَكَةِ أَحَدَ (٦٢٥م)، وَالْخَنْدَقِ (٦٢٧م)، فَصَلَحَ الْحَدِيبِيَّةَ (٦٢٧م)، ثُمَّ أَخِيرًا اسْتَسْلَامَ مَكَّةَ (٦٣٠م) وَإِذْعَانَهَا لِلْقُوَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَكُلَّ ذَلِكَ رَافِقَهُ ازْدِيَادُ مَلْحُوظٍ فِي الْمَوَارِدِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ، مَعَ تَنَامِي قُوَّتِهِمُ الْعَسْكَرِيَّةِ وَوَلَاءِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ قَبَائِلِ الْحِجَازِ الْبَدَوِيَّةِ.

إِنَّ الرِّوَايَةَ الَّتِي يَنْقُلُهَا كُتَّابُ السِّيرِ وَالْمَغَازِي عَنْ صُورَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ تَسْتَرْعِي الْاِتِّبَاهَ، لِاسِيْمَا وَأَنَّ لِمَكَّةَ مَكَانَةً رَمْزِيَّةً فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَسَيَكُونُ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا مِنْ طَرَفِ جَيْشٍ كَثِيرٍ الْعَدَدِ أَثَرٌ كَبِيرٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْعَرَبِ، فَاسْتَسْلَامَ مَكَّةَ وَدُخُولَ أَهْلِهَا فِي الْإِسْلَامِ يَعْنِي أَنَّ إِلَهَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَقْوَى مِنْ بَاقِي آلِهَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْمَقَارَنَةِ أَنْ تَتَرَسَّخَ فِي الْأَذْهَانِ لَوْلَا الصُّورَةُ الَّتِي دَخَلَ بِهَا الْجَيْشُ الْمُسْلِمُ إِلَى مَكَّةَ، إِذْ «كَانَ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِعْرَاضِ الْقُوَّةِ مِنَ الزَّحْفِ عَلَى مَكَّةَ بِجَيْشٍ قَوِيٍّ مَا دَامَ الْمَكِّيُّونَ الْعَرَبُ الْآخَرُونَ لَا يَعْتَرِفُونَ إِلَّا بِمَوَازِينِ الْقُوَّةِ»<sup>(١)</sup>، وَلَيْسَ فَتْحُ مَكَّةَ إِلَّا خُطْوَةٌ مِنْ أَجْلِ السَّيْطَرَةِ عَلَى شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالَّذِي لَنْ يَجْرِيَ إِلَّا بِإِخْضَاعِ جَنُوبِ الْحِجَازِ، وَتَصَفِيَةِ التَّحَالِفِ الْقَبْلِيِّ بَيْنَ ثَقِيفٍ مِنَ الْحَضَرِ وَهَوَازِنَ مِنَ الْبَدْوِ<sup>(٢)</sup>، وَهُوَ التَّحَالِفُ الَّذِي يَجْعَلُ مِنْ حَاضِرَةِ الطَّائِفِ مَنِيْعَةً عَلَى الْاِقْتِحَامِ وَالْغَزْوِ. بِهَذَا التَّخْطِيطِ سَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَاتِحًا إِيَّاهَا، ثُمَّ تَوَجَّهَ بَعْدَهَا

(١) جَعِيطٌ، ص ١٧٢.

(٢) الْوَاقِدِيُّ، ج ٢، ص ٨٠٢.

إلى الطائف. وفي هذا المسار الجديد سيلتقي الجيش المسلم لأول مرة مع حلف بدوي كبير كهوازن، ليضيف هذه التجربة إلى سجل انتصاراته مؤكداً على قوة جيشه، فحلف هوازن ما كان بمقدورهم الصمود أمام جيش حضري مُنظَّم. وعلى الرغم من أن الحصار الذي ضربه الجيش المسلم على الطائف بعد انتصارهم على هوازن لن يتكلل بالنجاح في حينه فإن الطائف علمت أنها لن تستطيع الصمود أمام القوة الجديدة في الحجاز؛ لتختار الدخول في الإسلام دون حرب، وهو ما تحقق بعد عام من فتح مكة، أي سنة ٦٣١ م.

كل هذه الأحداث المهمة سيكون لها أثر كبير في تشكيل هوية جديدة. فقد استطاع المسلمون إخضاع مكة، وهي مدينة لها رمزية مهمة عند العرب؛ كونها أهم ملتقى تجاري في الحجاز ومركز الديانة الوثنية في الجزيرة العربية، كما استطاع الجيش الناشئ اختبار قوته وذلك بإخضاعه لكل البدو الذين واجههم، بما في ذلك حلف هوازن الذي يُعد أحد أكبر التجمعات البدوية. لقد استطاع الإسلام في هذه المرحلة إخضاع منطقة الحجاز لتوحيد سياسي<sup>(١)</sup>؛ بيد أن هذه الإنجازات على أهميتها كانت تتطلب

---

(١) لن تمضي سوى سنوات قليلة حتى تعرف كل الجزيرة العربية توحيداً دينياً-سياً وذلك في عهد الخليفة أبي بكر؛ ثم بعدها سيعرف توسع الإسلام في منطقتي العراق والشام تحوُّلاً في مفهوم التوحيد الديني - السياسي، لتدخل معه الذات العربية كعامل مُحدد للبنية السياسية - العصبية حسب ابن خلدون- وسيعرف هذا التداخل بين الإثني والديني أوجه مع الحُكم الأموي.

مزيِّداً من العمل والجُهد سواء في الجانب الديبلوماسي أو العسكري<sup>(١)</sup>، الشيء الذي يُفسر بداية الاهتمام بمنطقة الشمال والتخوم البيزنطية باعتبارها المنطقة الوحيدة التي يُمكن أن تُهدد المشروع الديني للنبي مُحمد ﷺ وما حقَّقه من إنجازات سياسية.

## ٢- الآخر المُهدد للأنا: بيزنطة باعتبارها خطراً على

### القوة الناشئة:

في هذه الفترة لم يكن خضوع الطائف إلا مسألة وقت، ولم تعد تُشكل الحواضر العربية ولا حتى قبائل البدو أيَّ تهديد على مسار تثبيت دعائم الدين الجديد. يرى جعيط أن التهديد الوحيد الذي يُمكن أن يُدمر المشروع الذي أنشأه محمد ﷺ هو القادم من الشمال، وتحديدًا من الإمبراطورية البيزنطية التي تعيش ذروة مجدها وسطوتها بعد أن استطاعت الانتصار على الإمبراطورية الفارسية<sup>(٢)</sup>. على أن هذا التهديد الذي يدفع محمداً ﷺ إلى تجهيز ثلاث حملات إلى الشمال -مع قيادته لإحداها- ثم وصيته بإنفاذ الثالثة قبل وفاته لا يُمكن لوحده تفسير المُجازفة بحملة عسكرية من شأنها أن تستفز الإمبراطورية البيزنطية وتُسرع في الإجهاز على مشروعه. فهل كان الحذر من بيزنطة أم من حُلُفائها من عرب الشمال؟ وهل بالفعل كان الجيش البيزنطي مُهاباً بعد انتصاره على الفرس؟

---

(١) جعيط، ص ١٧٩.

(٢) نفسه، ص ١٩١.

تجدر الإشارة إلى أنَّ الفترة التي اعتلى فيها هرقل Heraclius (ت. ٦٤١) عرش بيزنطة في ٦١٠م كانت فترة شديدة الاضطراب<sup>(١)</sup>، سواء تعلق الأمر بالأوضاع الداخلية والصراع على عرش الإمبراطورية أو الحملات المُتتالية على التخوم الشمالية والغربية من طرف القبائل الجرمانية وعلى التخوم الشرقية من طرف الجيش الفارسي. وممَّا لا شك فيه أنَّ الحملة التي قادها هرقل نفسه والتي استمرَّت من عام ٦٢٢م إلى ٦٢٧م<sup>(٢)</sup> تُشير إلى أنَّه وضع كامل إمكانياته لمُواجهة أكبر تهديد في منطقة الشرق.

إنَّ إنهاء حملة هرقل بالانتصار في الحرب بعد عرض الصلح الذي قدَّمه شيرويه Shiruya (ت. ٦٢٨) ملك الفرس<sup>(٣)</sup> يدل بشكل واضح أنَّ كلا الإمبراطوريتين قد وصلتا إلى حد الاستنزاف، ولم يكن بمقدورهما المُجازفة في المد من عُمر الحرب، ولا في أن يفتح أي واحد منهما جبهة أخرى ضد أعداء جدد، على الرغم من التوصيف المُبالغ للمؤرخ الروسي فيودور أوسبنسكي Fyodor Uspensky في كون انتصارات هرقل تُماثل فتوحات الإسكندر المقدوني<sup>(٤)</sup>. إنَّ الإنهاك الاقتصادي والسياسي

---

(١) Theophanes, p 427.

(٢) Ibid, p. 438-457.

(٣) Ibid, p. 455.

(٤) لم تكن هذه المُبالغة فقط عند المؤرخين المُعاصرين، فثيوفان نفسه يُعطي صبغة دينية لانتصار الإمبراطور هرقل بتشبيهها بأحداث الخلق كما جاءت في سفر التكوين؛ فالإله خلق الكون في ستة أيام ثم جعل اليوم السابع يوم راحة، =

الذي تعرضت له الإمبراطوريتان في المسار الطويل من الاقتتال والحروب يُفسر إلى حد بعيد سبب السقوط السريع للإمبراطورية الفارسية بعد عشر سنوات من المواجهات مع المسلمين من ٦٣٣م إلى ٦٤٤م، وأيضًا سبب فقدان الإمبراطورية البيزنطية عددًا مهمًا من المدن الكبرى في منطقتي الشام وآسيا الصغرى.

مع ذلك، فمن المؤكد أن قوة صغيرة كالتي أسسها النبي محمد ﷺ في يثرب لن يكون لها آنذاك الطموح الكبير لتواجه جيش بيزنطة الذي خرج للتو منتصرًا في معركته ضد الفرس -على الرغم من أنه جيش مُنهك-، مع الإشارة إلى أن محمدًا ﷺ لم يكن يطمح طيلة فترة العمل على مشروعه الديني إلى غزو العالم المحيط، بل كان ذلك مشروع خلفائه بعد أن تهيأت لهم الظروف المناسبة لذلك<sup>(١)</sup>. لا يبقى إذن من مُبرر لتحريك الجيش في مؤتة ثم تبوك إلا الخوف الشديد من عرب الشمال، فهم وحدهم في هذه الفترة من يُمكن عدُّهم تهديدًا حقيقيًا لدعوة محمد ﷺ.

---

= وكذلك الشأن بالنسبة إلى هرقل الذي استمر في حملته مدة ستة سنوات، لتتكمل بالانتصار في السنة السابعة التي كانت سنة راحة وفرح وإعادة الصليب المقدس لكنيسة أورشليم؛ وقد سبقه في هذا التوصيف الشاعر البيزنطي المعاصر لهرقل، جورج البيسيدي George Pisida، حيث كتب على نمط الشعر اللاتيني للملاحم والبطولات المعروف باسم إبنكيون Epinikion شعرًا غنائيًا تحت عنوان «الأيام الستة» Hexaemeron يُمجّد فيها هرقل ويُمائل أعماله بقصة الخلق، يُنظر:

Alexander A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire 324-1453* (Madison: University of Wisconsin Press, 1952), v. 1, p. 197; Howard-Johnston, p. 31-34.

(١) جعيط، ص ٢١٠.

إنَّ تأمين مدينة يثرب باعتبارها مركز الدعوة والسلطة السياسية، ثم تدعيم النفوذ على مناطق حديثة الفتح وهي المناطق الجنوبية للحجاز -مدينتي مكة والطائف- كان يتطلب الحذر من عرب الشمال الذين تضرّرت مصالحهم الاقتصادية في المنطقة، خصوصًا بعد مُحاولتهم تضيق الخناق على القوة الصاعدة في يثرب؛ مما أسفر عن العديد من المُناوشات بين الطرفين بدءًا بغزوة دومة الجُندل سنة ٦٢٦م التي حاول فيها المسلمون فك التضيق على الخط التجاري بين الشام ويثرب والذي كان يجلب الدقيق والزيت -حسب رواية الواقدي<sup>(١)</sup>- ما يؤكد من جهة أنَّ التجارة في حد ذاتها لم تكن موردًا يسمح بمُراكمة رأس المال بقدر ما هي تجارة مبنية على سد الحاجيات الأساسية، ومن جهة أخرى فإنَّ هذا يُشير إلى تفضيل عرب الشمال التجارة مع مكة التي تربطهم مصالح مُشتركة على أن يُتاجروا مع مسلمي يثرب. يتضح إذن بالنظر إلى تطور الأحداث أنَّ تجهيز محمد ﷺ لحملة إلى الشمال لم يكن منه بد، سواءً تعلق الأمر برهانات اقتصادية، أو رهانات عسكرية وتأمين استباقي للمنطقة<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم من أنَّ الغزوة -دومة الجُندل- انتهت دون حدوث اقتتال بين الطرفين، لكن استنصار واستقواء عرب الشمال بالجانب البيزنطي كان واضحًا من خلال تحذير محمد ﷺ بأن أي مُحاولَة للاقترب

(١) الواقدي، ج ٣، ص ٩٨٩-٩٩٠.

(٢) جعيط، ص ١٩٠.



من الشام ستُشير حفيظة هرقل، كما ينقل الواقدي: «إن دنوت إلى الشام كان ذلك مما يُفزع قيصر»<sup>(١)</sup>، ثم ما لبث أن انتشرت شائعات بشأن زحف حلفاء بيزنطة نحو يثرب<sup>(٢)</sup>.

داخل هذا السياق يُمكن تفسير سبب أول مُراسلة بين النبي وهرقل كما ترويه العديد من مصادر السيرة والمغازي دون أن تُشير إلى مُحتواها، وهو أمر مُستغرب سكوت المصادر عنه نظرًا إلى قيمة المُرسِل والمُرسل إليه. إنَّ هذا التطور السريع للأحداث بدءًا من إرسال حملة من يثرب إلى دومة الجُندل ثم الخوف من أن يُثير هذا التوغل في الأراضي الجنوبية لبيزنطة حفيظة هرقل ليجري إرسال مبعوث إليه بعد أشهر من الحادثة يسمح بملء الفراغ الذي تركته الرواية الإسلامية، والتخمين بشأن فحوى الرسالة. إذ الأمر لا يبدو أنَّه دعوة دينية بقدر ما يُمكن أن يكون طمأنة لهرقل بعدم وجود أي نية للغزو من طرف محمد ﷺ وأصحابه، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تأمينًا لمحيط يثرب من عدوان قبائل عرب الشمال، الذين كان جزء منهم غير خاضع للسلطة البيزنطية، إنَّها اذن إخبارٌ لهرقل بالتطورات في الحجاز، وتأكيد على غياب أي نية لهذه القوة الصاعدة في توسيع نفوذها نحو الأراضي البيزنطية. كما أنَّ مصادر السير والمغازي ذكرت أنَّ المبعوث إلى قيصر تعرض له رجال من جذام ولخم فسلبوه كل ما

(١) الواقدي، ج ١، ص ٤٠٣.

(٢) نفسه، ج ١، ص ٤٠٣.

يملك وذلك في طريق عودته<sup>(١)</sup>، وهي رواية يصعب الجزم بحدوثها لاسيما وأن جذام ولخم هم حراس للتخوم البيزنطية، وما كانوا ليعترضوا مبعوثاً قادماً من عند هرقل ومُحملاً بالهدايا التي أعطاه إياها، وحتى لو صحّت الرواية فإن قطع الطريق يكون قبل أن يصل المبعوث إلى هرقل، بسبب فحوى الرسالة التي تُدينهم مما يُبرر توجيه النبي محمد ﷺ لحملات إلى التخوم القريبة سعياً للحفاظ على الأمن الاقتصادي والسياسي. وعلى صحة هذه الفرضية فيكون واضحاً سبب سكوت مصادر المغازي عن مضمون الرسالة التي تُظهر محمداً ﷺ ليس بمظهر النبي والقائد القوي ولكن بمظهر السياسي والمُفاوض والساعي لعدم استفزاز هرقل، وبالنظر لتاريخ تدوين أخبار المغازي (ق. ٨م) فلن يُقدم مُدونوها على ذكر ما تضمّنته الرسالة في سياقٍ كانت الغلبة والقوة فيه للعرب.

### ٣- معركة مؤتة: ملحمة ضد عدو مُتخيل

وإذ إن عرب الشمال رفضت الخضوع لمحمد؛ لما قد يتسبب فيه هذا التحالف من آثار سلبية على مصالحهم التجارية مع مكة وعلى دورهم في المنطقة كحراس لبيزنطة فإنّ الصراع بين الطرفين سيتطور بعد مقتل مبعوث محمد ﷺ إلى ملك بُصْرَى على يد أحد زعماء الغساسنة<sup>(٢)</sup>، وذلك في السابع من الهجرة حسب

(١) الواقدي، ج ٢، ص ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٧٦٠-٧٦٥.

بعض الترجيحات<sup>(١)</sup>، ليستتبعها في السنة الموالية مقتل خمسة عشر رجلاً من المسلمين بمنطقة ذات أطلاق<sup>(٢)</sup>. سترتب عن هذه الصراعات والمناوشات بعث النبي محمد ﷺ بجيش قوامه ثلاثة آلاف رجل حسب ما ترويه المصادر، وذلك في جمادى الأولى ٨هـ الموافق لـسبتمبر ٦٢٩م وهو ما عُرف بغزوة مؤتة.

سيُضخم كل من الواقدي<sup>(٣)</sup> وابن هشام في روايته عن ابن إسحاق<sup>(٤)</sup> وغيرهم من أحداث هذه الغزوة؛ لتبدو وكأنها ملحمة، سواءً من جهة تعداد جيش العدو أو من حيث طبيعتهم، إذ عوض أن تكون المعركة ضد جيش عرب الشمال وتحديداً عرب قُضاة فستكون ضد بيزنطة التي عسكرت في مؤتة بجيش قوامه مائة ألف رجل مُقابل ثلاثة آلاف رجل من المسلمين<sup>(٥)</sup>.

---

(١) سالم، ص ٨٨.

(٢) الحادثة التي قُتل فيها خمسة عشر رجلاً من المسلمين بمنطقة ذات أطلاق وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٨هـ الموافق لشهر غشت سنة ٦٢٩م.

(٣) الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٦.

(٤) ابن هشام، ص ٣٧٥-٣٨٢.

(٥) من خلال تتبع التاريخي للروايات حول مؤتة يتضح أنه كلما بعدت الرواية عن الحدث كلما زاد اقتحام الأسطورة للتاريخ، وأبرز مثال على ذلك ما رواه علي بن برهان الدين الحلبي في كتابه السيرة الحلبية، إذ أقحم العديد من الإضافات على رواية ابن إسحاق، تتجه نحو البُعد الأسطوري والملحمي للغزوة، وسنكتفي فقط بما ذكره عن تعداد الجيش البيزنطي، الذي بلغ مائتي ألف من البيزنطيين وخمسين ألفاً من عرب الشمال، يُنظر: علي بن إبراهيم الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأُميين المأمون، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ج ٣، ص ٩٦.

تأتي هذه الرواية كتبرير للهزيمة التي تعرض لها جيش المسلمين، على اعتبار أنهم كانوا ذاهبين لمُلاقاة عرب الشمال فإذا بهم يُلاقون جيش بيزنطة، وأيضًا كون هزيمة ضد مائة ألف من البيزنطيين -أو يزيد- لن تُسيء لسمعة المسلمين أمام باقي عرب الحجاز لاسيما وأن الطريقة التي رُويت بها أحداث انسحاب الجيش بقيادة خالد بن الوليد تحمل في طياتها معانٍ للحنكة والمكر والبطولة.

من المؤكد أن المعركة لم تكن ضد بيزنطة، وإنما ضد حلفائها من العرب، وهو أمر عادة لا تُفرق فيه كتب المغازي والسير، فلو أن المعركة كانت بين جيش بيزنطي لما غادر هرقل وجيشه فلسطين ومنطقة الشام في ٦٣٠م أي قبل أشهر قليلة من التاريخ الذي تحدده المصادر العربية لهذه الواقعة<sup>(١)</sup>، كما يذهب والتر كييجي Walter E. Kaegi<sup>(٢)</sup> إلا أنَّ العديد من الأدلة تؤكد عدم وجود الجيش البيزنطي في منطقة مؤتة وهو ما يُفند رواية المصادر العربية<sup>(٣)</sup>، فحسب الإسطوغرافيا الرومانية والبيزنطية لم

---

(١) جعيط، ص ١٧٠.

(٢) Walter E. Kaegi, *Byzantium and the Early Islamic Conquests* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992) 2005, p. 72.

(٣) لم ينقل هذا الرأي فقط الإسطوغرافيا العربية، بل أيضًا ثيوفان في حوлиاته، غير أنَّه لا يتحدث عن قيادة هرقل للجيش البيزنطي، وإنما أوكل ذلك إلى الفيكار ثيودور vicarius Theodore -الفيكار رتبة عسكرية تعني نائب القيصر على الجيش البيزنطي-، يُنظر: Theophanes, p.466.

يُعسكر أي جيش نظامي في هذه المنطقة منذ القرن الثالث الميلادي، أما المُعطيات الأركيولوجية فتُشير إلى أنَّ أقدم أثر للوجود الروماني يعود إلى حوالي القرن الأول أو الثاني الميلاديين، الشيء الذي يؤكد أن الجنود الذين واجهوا المسلمين هم في الحقيقة حُرّاس التخوم البيزنطية من عرب الشمال.

ما يُمكن أن تُجلبه هذه الواقعة من مُعطيات حول المُتخيل يُمكن حصرها في كون الجيش البيزنطي لا زال إلى هذه اللحظة يتمتع بمهابة بين عرب الحجاز، سواء تعلق الأمر بتاريخ التدوين -٧٦٨م، تاريخ وفاة ابن إسحاق- أو تاريخ تناقل الخبر ٦٢٩م، فصورة بيزنطة كقوة مُدمرة ستكون لا ريب حاضرة في أذهان الجيش المُسلم الذي هُزم من طرف حُلفاء بيزنطة المُكلفين بحراسة التخوم. لذلك وكما يؤكد جعيط<sup>(١)</sup> سيكون هذا هو التوغل الأخير لمحمد ﷺ قبل أن يستأنف ذلك من بعده خليفته الأول أبو بكر.

#### ٤- معركة تبوك: علاقة الندية بين الأنا العربي والآخر البيزنطي

بعد فتح مكة في الثامن من الهجرة، ثم الحصار الذي فرضه النبي محمد ﷺ على الطائف، لم يكن ليُخشى من قوة قد تُساند الطائف ومكة إلا تلك القادمة من الشمال؛ نظرًا إلى المصالح الاقتصادية المُشتركة بين الطرفين، وأيضًا لمنع ظهور قوة

---

(١) جعيط، ص ١٧١.

إقليمية قد تُهدد مصالح عرب الشام ومكانتهم كحراس تخوم للإمبراطورية البيزنطية. هل بالإمكان أن يكون هذا السياق مُبرراً لانتشار الشائعات عن هجوم الروم وحلفائهم العرب من قبائل قضاة على مدينة يثرب كما يذهب لذلك الواقدي؟ يبدو ذلك ممكناً، لاسيما وأنه قد سبق تحذير محمد ﷺ من التوغل في الشام وأن ذلك سيُعد استفزازاً لهرقل ونشر شائعات لمهاجمة يثرب<sup>(١)</sup>، في الجانب الآخر فإنّ المكاسب التي حققها محمد ﷺ داخل منطقة الحجاز كانت تُجبره على الاستعداد لأي رد فعل من لدن الشمال. إنّ التهيؤ إذن لشنّ حملة نحو الشمال ستُملية ضرورة استراتيجية، لكنها أيضاً ليست حملة تهدف للمواجهة - فقد سبق وأن مُني الجيش المسلم بالهزيمة عند توغله في مؤتة - بقدر ما تهدف لتحذير أي أطراف من التدخل في الشأن الداخلي للحجاز. يذهب جعيط لهذا المعنى حين تأكيده أن الدافع لهذه الحملة هو عسكري خالص ونفسي محض يهدف إلى استعراض القوة أمام العرب كافة وأمام عرب الشمال على وجه الخصوص<sup>(٢)</sup>، ولم يكن خبر عسكرة الجيش البيزنطي في تبوك ليتوجه فيما بعد إلى يثرب إلا محض إشاعة جرى ترويجها لاستنفار أكبر عدد من الرجال، كما ينقل الواقدي<sup>(٣)</sup>.

(١) الواقدي، ج ١، ص ٤٠٣.

(٢) هشام جعيط، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) الواقدي، ج ٣، ص ٩٩٠.

وإن كانت مصادر المغازي والسير تتحدث عن السبب الإيماني الذي يتجلى في ضرورة الانقياد التام والكامل لأوامر محمد ﷺ - كما تُشير لذلك أيضًا نصوص القرآن وخاصة سورة التوبة<sup>(١)</sup> التي عالج هذه الأحداث - إلا أنها تطرقت أيضًا إلى جانب مُهم من التحفيز المادي بالمكاسب والغنائم التي سيتحصل عليها المشاركون في الحملة. وهو ما يكشف عن مُتخيل جغرافي حول الأراضي البيزنطية ورغد العيش فيها، ثم الأهم من ذلك أنها تكشف عن بداية تحقق الذات العربية بوصفها ندًا للقوى المُجاورة. ومن ذلك ما ذكره ابن هشام والواقدي من اعتراض أحدهم على توجه المسلمين إلى تبوك ومُخاطبتهم قائلاً: «أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنَّا بكم غدًا مقرنين في الحبال»<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من أن المصادر الآنفة الذكر لم تورد ردًا على هذا الاعتراض، لكن سياق الحدث يُعد بحد ذاته جوابًا كافيًا، فالجيش الذي جهَّزه النبي ﷺ هو الآن في طريقه إلى قتال بيزنطة التي يخشاها كافة العرب، أما المُتخيل الجغرافي فيُمكن الإشارة إليه من خلال ما تنسبه المصادر من ترغيب النبي محمد ﷺ للمشاركة في الحملة

(١) قدّم الجابري قراءة لسورة التوبة، مُعتمدًا على سياقها السياسي والاقتصادي، يُنظر: الجابري، ص ١٢٢-١٢٨.

(٢) ابن هشام، ج ٢، ص ٥٢٥؛ الواقدي، ج ٣، ص ١٠٠٣.

بالْغُنى من نساء بيزنطة: «ألا تغزو بني الأصفر؟ عسى أن تحتقب من بنات الأصفر»<sup>(١)</sup>.

وبغض النظر عن كون الحملة لم ينتج عنها مواجهة بين الطرفين نظرًا إلى عدم توغل الجيش المسلم في أراضي الشمال كما حدث في مؤتة، إذ لم تتجاوز الحملة منطقة تبوك، لكنها أدت الغرض الاستراتيجي من جهة؛ لكون النبي استعرض قوّته أمام عرب الشمال، لاسيما قضاة المُتَحالفين مع بيزنطة، وأيضًا استطاع حشد أكبر عدد من الرجال في تاريخ غزواته، ومن ثمّ رسّخ في أذهان العرب أنّ الحجاز صارت الآن تمتلك قوة لا يُستهان بها، ومن المؤكد أنّ أخبارًا من هذا القبيل سوف تنتشر في جميع أرجاء الجزيرة العربية خلال فترة وجيزة، وهو ما يُفسر إلى حد ما كيف أذعنت باقي القبائل بل وزعماء آخرين من عرب الشمال<sup>(٢)</sup> مُقدمين ولاءهم وطاعتهم.

---

(١) الواقدي، ج ٣، ص ١٠٢٣؛ ابن هشام، ج ٢، ص ٥١٦.

(٢) يُمكن الحديث في هذا السياق عن دخول يحيى بن ربيعة زعيم أيلة إلى الإسلام وتقديم أهلها الجزية لأنهم اختاروا البقاء على مسيحيّتهم، والأمثلة في ذلك كثيرة تُفسر سبب الانتشار السريع للإسلام في السنة الثامنة والتاسعة للهجرة، أي السنتين التي فُتحت فيهما مكة والطائف وتوجه النبي ﷺ بحملته نحو تبوك، يُنظر: الواقدي، ج ٣، ص ١٠٣١.



## ● خلاصة:

إن تطور المُتخيل حول الآخر ما هو في حقيقته إلا تطور في الذات؛ لقد حاولنا أن نؤكد هذه الفرضية من خلال البحث في العلاقات العربية البيزنطية في فترة الإسلام المُبكر. فإن كانت معرفة الجماعة المُسلمة ببيزنطة في فترة الإسلام المُبكر لم تستند على تقصُّ حقيقيٍّ مما جعلها على قدرٍ كبير من السطحية، فإنَّ ذلك سمح للمُتخيل أن يأخذ مكانه في رسم صورة بيزنطة، إنَّها تلك الإمبراطورية المنيعة التي لن يكون فتحها إلا علامة من علامات نهاية التاريخ، وهي على منعتها غنية وفاتنة، فكانت من ثم العدو والصديق في آن واحدٍ معًا.

إنَّ هذه الرغبة تؤكد على تغير ملحوظ في الأنا قبل أن يُلقَى إسقاطاته على الآخر. فقد كانت التجربة النبوية لحظة فارقة في تاريخ المنطقة أعادت تشكيل الهوية العربية، ومن غزوة بدر (٦٢٤م) إلى غزوة تبوك (٦٣٠م) يُمكن رصد تطورات مُهمّة في الجزيرة العربية ذات منحيين؛ ففي هذه الفترة بدأت الذات العربية تعي نفسها وتؤمن بكونها قادرة على أن تُصبح فاعلاً في أحداث التاريخ، ومن جهة أخرى بدأت صورة بيزنطة كقوة مهيبة ومرعبة تخف شيئاً فشيئاً.

وعلى الرغم من أن التجربة النبوية لم تعرف احتكاكاً عسكرياً مُباشراً مع بيزنطية، لاسيما وأن مشروع النبي محمد ﷺ كان يتركز أساساً على التوحيد الديني والسياسي للجزيرة والعربية

فإنَّ المُواجهة لم يكن منها مفر، سواء مع عرب الشام المُوالين لبيزنطية أو مع الجيش البيزنطي نفسه، لذلك ستتسارع الأحداث في العقد الأول بعد وفاة النبي، لتتمكن الدولة الناشئة من فرض نفسها كقوة إقليمية في المنطقة، بعد أن استطاعت ضم منطقة فارس والشام ومصر وأجزاء من آسيا الصغرى. لذلك يُمكن القول بأنَّ جذور الصراع بين الطرفين الذي سيستمر إلى القرن الخامس عشر تعود جذوره للمشروع الذي تبناه النبي محمد ﷺ في توحيد الجزيرة العربية، ثم من بعده الانتقال من المحلي إلى الكوني مع الخليفين أبو بكر وعمر بن الخطاب.

## الفصل الثاني

### ببزنطة المٌتخيلة:

### بين الاستعمالات اللغوية ورهانات التوظيف

#### ● مقدمة:

نظراً إلى أنّ تدوين كُتب المغازي والسير جاء في مرحلة شهدت التوسع الكبير للمسلمين في مناطق فارس والشام وشمال إفريقيا وغيرها؛ فإنّ هذا الشعور بالتفوق سيُلقي بظلاله على الطريقة التي كُتبت بها سيرة النبي، وهي مُسبقات تسمح لنا بتحديد العلاقة بين الأنا والآخر، وكيف نظر العرب في هذه الفترة لخصمهم البيزنطي، لاسيما وأنّه كان الخصم الوحيد بعد سقوط الفرس الذي يحمل مُقومات حضارية كان ينظر لها المسلمون بعين الإعجاب والخوف في الآن معاً<sup>(١)</sup>.

---

(١) أندري ميكيل، جغرافيا دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، ترجمة إبراهيم خوري (دمشق: دار إشبيلية، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ١٥١.

إنَّ هذا السياق التاريخي جعل المُتخيل العربي حول بيزنطة يطبعه نوعٌ من الخصوصية؛ فهي دومًا الآخر العدو والخصم الأول<sup>(١)</sup>. مما جعلها تبدو في النصوص العربية كنقيض للأنا، وقد عبَّر أندري ميكيل André Miquel عن هذه الفكرة قائلاً: «نرى أنَّ دار الإسلام تعقد أملها على كفر بيزنطية ذاته (... ) فحيثما يوجد الإسلام لا مكان لبيزنطية والعكس صحيح»<sup>(٢)</sup>.

لا تستند هذه الثنائية الحاضرة بين دار الإسلام وبيزنطية على خلفية دينية، فمُصطلح دار الإسلام -ولو جاء التعبير عنه بألفاظ دينية- يبقى ذا حمولة سياسية بالدرجة الأولى، جرى من خلال تصنيف المجال الذي يُسيطر عليه المسلمون<sup>(٣)</sup>، فهل كانت إذن بنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية مبنية فحسب على هذه الثنائية

---

(١) ميكيل، ص ٢٥٤.

(٢) نفسه، ص ٢٥٦-٢٥٧؛ كما يُمكن أن نُحيل أيضًا على نص جاء في السياق ذاته: «لا شك أن القسطنطينية مركز كفر خاص. لكن النصرانية مقبولة ومحترمة في قبل دار الإسلام، وإنَّ كانت تُعتبر مقاربة ناقصة وأثيمة حيال الإيمان الحقيقي. عندئذ؟ في النهاية لا بد من التفتيش عن الجواب في السياسة، ولو اضطرت أن تُعبّر عن نفسها بألفاظ دينية. فبيزنطية، مثلما قلنا، يُنظر إليها أولاً، ويُنظر إليها على وجه التخصيص كمملكة، كتنظيم مُتورط بنوع من القرار الإلهي في صراع يجب على الإسلام أن يُثبت حقوقه فيه. لكن يبدو أن الإثبات طويل، ولا تنتهي المُغامرة التي تشابك فيها بيزنطة ودار الإسلام»، يُنظر: ميكيل، ص ٢٥٧.

(٣) وقد انتبه ميكيل إلى أنَّ النصوص العربية لا تصف بيزنطة بأهل الكتاب، يُنظر: ميكيل، ص ٤٥٩.

الأنما المُسيطرَة والآخر الخاضع أم أنَّ الدين بقي تأثيره في البنية  
الذهنية وتقسيم الآخرة بين مسلم / كافر؟

يبدو أنَّ الخطوة الأولى لمُعالجة هذه الإشكالية وتحديد  
مكانة الآخر البيزنطي ومدى حضور المؤثرات الحضارية والدينية  
والسياسة في تحديدها تستدعي بدايةً أن نولي الاهتمام لدراسة بنية  
الآخرة في الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما سنُخصّص له  
المبحث الأول من هذا الفصل، الذي سيكون بمثابة الأرضية التي  
سننطلق منها في المبحثين الثاني والثالث المُخصصان للمُتخيل  
البيزنطي من خلال اللغة، ثم وظيفة هذا المُتخيل ورهاناته بالنسبة  
إلى الذات العربية.

سنُحدد إذن إشكالية هذا الفصل في الكيفية التي جرى من  
خلالها بناء مُتخيل بيزنطة بعد أن استطاع العرب تحقيق ذاتهم  
كقوة إقليمية في المنطقة، يتفرع عنها جملة من الأسئلة نحصرها  
في التالي: كيف جرى إنتاج بنية الآخرة في الثقافة العربية  
الإسلامية؟ وكيف عبّرت الاستعمالات اللغوية عن بيزنطة؟ ثم  
كيف جرى توظيف هذا المُتخيل؟

### أولاً: بنية الآخرة وموقع الآخر البيزنطي

إنَّ دراسة مُتخيل الآخر البيزنطي في الثقافة العربية الإسلامية  
-من خلال كتب المغازي والسير- تقتضي منا رصد بنية الآخرة  
في كلياتها؛ إذ الانطلاق من الكل نحو الجزء سيُجنب البحث

السقوط في الثنائية الحدية بين عربي - بيزنطي، كما سيمسح بالكشف عن الكيفية التي جرى من خلالها تمثُّل الآخر. وهو ما يحيلنا إلى طرح سؤال نؤطر به هذا الجزء من البحث: كيف جرى إنتاج بنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية؟ ويتفرع عنه جملة من الأسئلة يُمكن إجمالها في التالي: هل جرى تعميم وصف واحد على جميع الشعوب والحضارات التي وقفت كآخر أمام الذات العربية؟ وهل تنزع صورة الآخر نحو الترميط بوصفها جوهرًا ثابتًا بما في ذلك صورة بيزنطة؟

سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال ثلاثة محاور أساسية. سنتطرق في الأول لدراسة الحمولة المعيارية للفظتي «عجم» و«علاج» باعتبارهما اسمي جنس أُطلقا على غير العرب، وحيث إن هذا التصنيف يعتمد على اللغة فإننا سنحاول دراسة بنية الآخرية عند العرب من خلال مُقارنتها ببنية الآخرية عند «الرومان»، وسنتوقف تحديدًا عند مفهوم «البرابري»، كونه أُطلق بداية على الآخر الذي لا ينطق لغة الأنا المُصنّف، مُحاولين اختبار مدى إمكانية إسقاط حمولة «البرابري» على السياق العربي الإسلامي، ستسمح لنا هذه المقارنة بإبراز مُميزات بنية الآخرية عند العرب وخصوصيتها ليكون مدخلا لدراسة صورة الآخر البيزنطي.

## ١ - الثنائية الحدية في الثقافة العربية الإسلامية

عند مُراجعة النصوص التي تتحدث عن الآخر غير العربي كمُقابل للأنا يُمكن رصد وصفَي «عجم» و«علاج» الوارد في

المصادر العربية، سواء تعلق الأمر ببيزنطة أو غيرها كالفرس والهند والصين إلخ. على أن المصادر الأولى للمغازي والسير تورد هذا الوصف تحديداً عند الحديث عن بيزنطة والفرس وهو أمر يُمكن تبريره نظراً إلى الاحتكاك المبكر معهما.

كلا الوصفان يُحيلان على المُختلف لُغوياً، مع تمييز بسيط يخص الثاني. ينقل ابن منظور في هذا الصدد أن «العجم» ومفرده «أعجم» و«أعجمي» هم الآخر الذي لا يستطيع الحديث بلغة عربية فصيحة ولو كان من أصول عربية<sup>(١)</sup>. إن هذا التعريف الذي ينقله كاتب ينتمي إلى الثقافة العربية وعاش في القرن الثالث عشر يُشير إلى أن الثنائية بين عربي وعجمي ظلت مُحافضة على مميزاتها اللغوية دون أن تتعداها إلى فروق إثنية أو أحكام قيمة. وبالرجوع إلى كُتب المغازي فقد جرى استعمال اللفظة بالمعنى ذاته الذي ذكره ابن منظور للدلالة على المختلف لُغوياً، ومن ذلك ما نقله ابن هشام في روايته عن ابن إسحاق: «حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري: أنه وجد كتاباً فيه ذكر من بعث رسول الله إلى البلدان وملوك العرب والعجم»<sup>(٢)</sup>. كما نجد هذه المقابلة حاضرة أيضاً عند الواقدي في نص نقله على لسان عمرو بن العاص: «قد ظهر

---

(١) ينقل ابن منظور بيتاً من الشعر يُثبت من خلاله هذه المقابلة بين العجمي والعربي، وهي قول الشاعر:

منهل للعباد لا بُدَّ منه

مُنتهى كل أعجم وفصح

يُنظر: ابن منظور، ج ١٢، ص ٣٨٥.

(٢) ابن هشام، ج ٢، ص ٦٠٧.

محمد على العرب والعجم»<sup>(١)</sup>. أمّا بالنسبة إلى لفظة «علج» فإنّ الاستعمال الذي يُميزها عن «أعجمي» يتجلى في توظيفها لوصف «الرجل من كفار العجم»<sup>(٢)</sup>؛ وعلى الرغم من أن ابن منظور يُعطيها حمولة دينية على اعتبار أن الأعجمي بالإمكان أن يكون مُسلمًا، في حين أن «العلج» الأعجمي غير المُسلم لكن الاستعمالات الأولى سواء في كتب المغازي أو ما سيأتي بعدها من تصنيفات استعملت اللفظة كوصف إضافي للأعجمي يخص مظهره الخارجي، كَوْن اللفظة تُطلق على الغلظة والشدّة<sup>(٣)</sup>، وعادة ما تُوردها المصادر في معرض الحديث عن «العجم» المُقاتلين؛ أي توصيف لهم في ساحة المعركة، ومن ذلك ما جاء عند الواقدي في وصفه لإحدى مُجريات معركة مؤتة<sup>(٤)</sup> وهو الاستعمال الأول لللفظة العجم في كتب المغازي.

(١) الواقدي، ج ٢، ص ٧٤٧.

(٢) ابن منظور، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٣) ومن ذلك ما نقله ابن إسحاق من أبيات ذكرها تميم ابن أسد:

ونجو لا ينجو نجائي أحمق

علج أقب مُشمّر الأقراب

حيث وردت لفظة «العلج» كناية على الحمار الوحشي، لما يُوصف به من غلظته وصلابته.

يُنظر: ابن هشام ج ٢، ص ٣٩١.

(٤) النص الذي أورده الواقدي هو التالي: «قال عوف بن مالك الأشجعي: لقيناهم في جماعة من قضاة وغيرهم من نصارى العرب، فصافونا فجعل رجل من الروم يسأل على المسلمين ويغري بهم (...) فلما رأى ذلك المددي ما يفعل ذلك =



إنَّ هذه الثنائية المبنية على الجانب اللغوي على اعتبار أن الآخر هو الذي لا يتحدث لغة الأنا تُوفر لنا مجالاً لمقارنتها مع ثنائية مُتَحَضِر/ برابري السائدة في منطقة المُتوسط -تحديداً عند اليونان ومن بعدهم الرومان- والتي ترجع هي أيضاً لجذور لغوية. يكمن الداعي وراء عقد هذه المُقارنة إلى سببين اثنين:

**أولاً:** لاعتمادها على التصنيف نفسه المبني على التمييز اللغوي؛ أي الآخر الذي لا يتكلم لغة الأنا،

**وثانياً:** لما وجدناه في بعض الدراسات المُعاصرة من مقارنة لموضوع الأخيرة في الثقافة العربية الإسلامية يستند على ثنائية التصنيف نفسها في السياق «الأوروبي» الحديث، ونقصد تحديداً الدراسة التي قدّمها عزيز العظمة في كتابه **العرب والبرابرة**، وهي من بين أولى الدراسات في موضوع الأخيرة عند العرب، تميّزت بتأطير مؤلفها منذ اختياره العنوان بهذه المقابلة بين «الأنا» بحمولته العربية قبالة «الآخر» بحمولته «الأوروبية». سيسمح لنا إذن عقد المقارنة من اختبار القدرة التفسيرية لفرضية عزيز العظمة وما إذا كانت قادرة على استيعاب نظرة العرب للآخر البيزنطي.

---

= الرومىّ بالمسلمين كمن له خلف صخرة، فلمّا مرّ به خرج عليه فعرقب فرسه، فقعد الفرس على رجله وخرّ عنه «العلاج»، وشدّ عليه فعلاه بسيفه فقتله». يُنظر: الواقدي، ج ٢، ص ٧٦٨.

## ٢- ثنائية روماني برابري وبنية الأخيرة عند العرب

تعود ثنائية روماني / برابري<sup>(١)</sup> إلى أصول إغريقية؛ فالإغريق القدماء عبروا عن كل مُختلف عنهم بلفظة برابري<sup>(٢)</sup>، وهي وإن كانت في بداياتها تُطلق على الذي لا ينطق اللغة اليونانية إلا أنها سرعان ما تحولت إلى نوع من التمييز والتصنيف الذي يستند على حكم قيمة تحقيري تُلحق بكل مختلف إثني وحضاري، بما في ذلك المصريين والفينيقيين والفراسيين<sup>(٣)</sup>؛ ثم تبنت الحضارة الرومانية الثنائية نفسها حيث يوصف بالبرابري كل الشعوب غير الخاضعة سياسياً لسلطتها.

لقد كانت هذه الثنائية -الحاضرة باستمرار ضمن الأدبيات اليونانية للعصر القديم ثم اللاتينية للعصر الوسيط- على قدر كبير

---

(١) نستعمل لفظة برابري Barbarian لتمييزها عن بربري Berber التي أطلقتها المصادر العربية على الأمازيغ، الذين استوطنوا مناطق عدة من شمال إفريقيا.

(٢) ذكر هيرودوت في كتابه التاريخ: أن عبارة برابري هو نعت أطلقه المصريون القدماء على الشعوب التي لا تتحدث لغتهم، ثم انتقل النعت إلى الإغريقين كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من الألفاظ، كأسماء الآلهة وغيرها. يُنظر:

Hérodote, *Histoire D'hérodote*, Élie-Ami Betan (trans.), (Genève : M.- E. Carey, 1836), p 243.

(٣) قدم المؤرخ ميشيل دوبويسون Michel Dubuisson دراسة، يرصد من خلالها التطور الإيتيمولوجي لعبارة برابري في العالم الإغريقي والروماني، وكيف انتقلت العبارة من وصف للمُختلف لغوياً إلى وصف تحقيري لكل مختلف إثني، يُنظر:

Michel Dubuisson, "Barbares et barbarie dans le monde gréco-romain," *L'antiquité classique*, vol. v. (2001), p. 1-16.

من الأهمية خلال هذه التجربة التاريخية الطويلة للإمبراطورية الرومانية ثم وريثها البيزنطية؛ فقد سمح الأمد الطويل بتشكيل بنية ذهنية تُقيم علاقة حُدِّيّة صارمة بين الأنا والآخر. يُمكن في هذا الصدد الإحالة على الدراسة التي قدّمها المؤرخ إيفي دوج Yves Dauge بعنوان البرابري: بحث في المفهوم الروماني للبربرية والتحضر<sup>(١)</sup>، حيث عدّ هذه الثنائية بمثابة قواعد ذهنيّة وعَمليّة بُنيت عليها قوة روما وأمجادها، كما يذهب لاستحالة دراسة الحضارة الرومانية بمعزل عن التصنيف الثنائي باعتباره يُمثل وجهين للحقيقة ذاتها، يتشكّل معها «مفهوم البربرية» أو «البربرولوجيا» Barbarologie حسب التأصيل الذي وضعه، مُعرِّفًا إياه بقوله: «إنّها بنية متأصلة في وعي الروماني، بنية أساسية ودائمة ساعدت في التشكل التدريجي لرؤية عن العالم والنخبة والحضارة والإمبراطورية ونظام عالمي»<sup>(٢)</sup>. ينطوي إذن هذا المفهوم الذي وضعه دوج على مُجمل التعابير والأوصاف التي أطلقها الكتاب اليونان والرومان على الآخرين، وتحديدًا أولئك الذين لا ينتمون إلى الحضارة الرومانية، وقد تمكّن من تفكيك هذه البنية والنفوذ إلى العناصر الأساسية التي تُحدد نظامها الذهني حاصرًا إياها في معيارين أساسيين يجري من خلالها تصنيف

---

(١) Yves A. Dauge, *Le Barbare : Recherches sur la conception Romaine de la Barbarie et de la Civilisation* (Bruxelles: Latomus, 1985).

(٢) Ibid, p. 805.

الآخر: الأول: فيريتاس Feritas وهي لفظة إغريقية تعني «الهمجية» وتُوسم بها القبائل الجرمانية وأيضًا تلك القادمة من الشمال، والثاني: فانيتاس Vanitas وهي لفظة تعني «الغرور» توصف بها الحضارات الشرقية كالفارسية والمصرية.

يُحيل هذا التصنيف الثنائي على المُصنّف أكثر مما يُحيل على المُصنّف ولذلك ومن خلال المقابلة الضدية ستحدد الفضائل الرومانية المُقابلة للفيريناس والفانيتاس، والتي تتكون من مجموعة من الفضائل تتمحور جميعها حول إعلان تفوق الروماني، ومن أبرزها: الاجتماعية<sup>(١)</sup> Humanitas، والجدية Gravitas، والاستقرار Constantia، والانضباط Disciplina.

إنّ الوظيفة التي تقوم بها هذه البنية سواء على المُستوى الذهني أو على المُستوى المادي وما يستتبعهما من آثار في السياسة والمُجتمع والاقتصاد تتجلى في إثبات مركزية الحضارة الرومانية، وتفوقها على سائر الشعوب مهما كانت درجة تحضرهم ورُقِيّتهم<sup>(٢)</sup>، فالآخر الغيري بالنسبة إلى الأنا هو طريق لإثبات الذات، ولا يجري ذلك إلا من خلال إقصائه وسلبه جميع

---

(١) أي بمعنى القدرة على العيش ضمن الجماعة وفي وضعيات اجتماعية مُختلفة من قبيل السياسة والحرب، يُنظر:

Pierre Vesperini, "Le sens d'humanitas Á Rome," *Melanges de l'École française de Rome - Antiquité*, 127-1, (09/06/2015), accessed on 10/04/2017, at: <https://goo.gl/N8JSPo>

(٢) Dauge, p. 677.

الفضائل، أو النظر إليه كمرآة عاكسة تُلصق بها نقائص الذات وغيوبها. وما أسفرت عنه التجربة الرومانية -نهاية المطاف- هو ترسيم حدود ثقافية فاصلة بين الأنا والآخر<sup>(١)</sup>، أصبح مع الأمد الطويل بنية ذهنية يُنظر من خلالها إلى بربرية الآخر بوصفها جوهرًا ثابتًا غير قابل للتغير أو التبدل سواء كان هذا الآخر ينتمي إلى حضارة عريقة أو إلى قبائل همجية.

لقد كان هذا العرض لبنية الآخرية عند الرومان -والتي لا تزال تُلقَى بظلالها على تاريخنا الراهن<sup>(٢)</sup>- ضروريًا من أجل تحديد أوجه الشبه والاختلاف مع بنية الآخرية في الثقافة العربية. فهل جرى تمثيل الآخر في سياقنا العربي على المنوال نفسه باعتباره جوهرًا ثابتًا ومناقضًا للأنا المُصنَّف؟

---

(١) الطاهر لبيب، «الآخر في الثقافة العربية»، في: الطاهر لبيب (تحرير)، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨)، ص ٢٠٢.

(٢) يُمكن في هذا الصدد الرجوع لدراسة مرجعية قدّمها ترفيتان تودوروف، وحاول من خلالها رصد العلاقة بين «نحن» (مجموعتي الثقافية والاجتماعية) و«الآخرين» (أولئك الذين لا ينتمون إلى مجموعتي) في السياق الأوروبي الراهن، دون أن يغفل عن العودة إلى أصول هذا الراهن، فاهتم ببداية القرن الثامن عشر إلى القرن الواحد والعشرين، مُبرِّزًا أثر النزعة الأوروبية الإثنومركزية في تحديد العلاقة بين الأنا والآخر، يُنظر:

Tzvetan Todorov, *Nous et les autres: La reflexion française sur la diversité humaine* (Paris : Editions du Seuil, 2004).

إنَّ الإجابة على هذا التساؤل لا تستدعي فحسب الرجوع إلى المصادر الأولية بل أيضا نقد الدراسات المُعاصرة التي عالجت موضوع الآخريّة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة. لاسيما وأنَّ بعض هذه المراجع يُعد أطروحة مُضادة لما نروم تقديمه في هذا البحث. يتعلق الأمر تحديداً بدراسة (عزيز العظمة) التي سبق وأنَّ أشرنا إليها، فقد قارب نصوص الثقافة العربيّة على ضوء قنلياته ومسبقاته التي يتحدد نظامها المعرفي ضمن المنهج الاستشراقي، مع إسقاطه لثنائية متحضر / برابري ذات السياق الأوروبي -والجذور الرومانيّة- على السياق العربي، وهو أمر يتضح في اختياره للعنوان نفسه<sup>(١)</sup>. لقد حاول العظمة من خلال البحث في علاقات الحضارة الإسلاميّة بالحضارات الأخرى أن ينسج نظرية عن الآخر كما هو الحال عند الرومان، ولم يُخفِ هذا المسعى في خلاصة كتابه، ليصل في الأخير إلى أن العرب أيضاً كفاعلين رأوا في الآخر جوهرًا ثابتًا<sup>(٢)</sup>. وإن كان صائبًا فيما قدمه من استنتاجات بشأن نظرة الاستعلاء التي ميّزت الثقافة العربيّة في نظرتها عن الآخر إلا أنَّ هذه النظرة تختلف عما أقامه الرومان من ثنائية حدية للعلاقة بين الأنا والآخر. فإذا ما رُمنا حصر

---

(١) جرى التركيز فقط على كتاب عزيز العظمة باعتباره نموذجاً لأولى الأعمال العربيّة التي حاول فيها مؤلفه دراسة بنية الآخريّة في الثقافة العربيّة، بيد أنَّها لم تختلف كثيراً عن أعمال المُستشرقين الغربيين التي تنحو أيضاً إلى تنميط وجوهرة صورة الآخر عند العرب، ومن ذلك على سبيل المثال أعمال برنارد لويس.

(٢) العظمة، ص ٢٣٠.

الأوصاف الواردة في المصادر العربية عند حديثها عن الآخر المُختلف سنجدُها تتراوح بين المدح والذم دون أن تضعها كتصنيفات منهجيّة أو تراتبيّة<sup>(١)</sup>، ومن ثم فإنَّ جعلها جوهرًا ثابتًا لا يُعد توصيفًا دقيقًا. على أن العظمة نفسه يُثبت تلك النظرة الإيجابية عند العرب تجاه الشعوب المُجاورة، ومن ذلك ما أورده في النص التالي: «وأقيمت الروابط التجارية والدبلوماسية والحرية والثقافية وغيرها مع الآخرين، ومن هؤلاء من اعتُبر في حكم المتمدن كالصينيين، ومن اعتُبر في حكم الهمج كالأفارقة، ومن اعتُبر بينَ بين كالصقالبة والأوربيين»<sup>(٢)</sup>. فكيف إذن تستطيع هذه المقابلة بين عرب وبرابرة أن تمتلك قوة تفسيرية في السياق العربي؟

نقترح أن استعمال العظمة لهذه المقابلة قياسًا على الحالة الأوروبية يرجع إلى محاولته اعتماد مقاربة استشراقية معكوسة لا تنتقد الاستشراق بقدر ما تُوظفه في الاتجاه المُعاكس؛ أي عوض دراسة الآخر المُتخيل عند الغرب قام بدراسة الآخر المُتخيل عند العرب بالأدوات والآليات نفسها<sup>(٣)</sup>. دون أن تأخذ

---

(١) كما أنَّ وصف «أعجمي» الذي افترضنا مع بداية البحث أنه ينحو منحى مُشابهًا لبرابري لا يُمكن عدّه تنميظًا للآخر كجوهَر ثابت.

(٢) العظمة، ص ١٢.

(٣) يتضح هذا المعنى من خلال ما ذكرناه سالفًا، لكن أيضًا برر العظمة الغاية من تأليف كتابه بقوله: «وقد كُتب الكثير بلغات مختلفة عن الاستشراق، فعنَّ لنا أن ندرس وضعًا مماثلًا يتمثل في ثقافة حضارة عالمية مسيطرة هي الحضارة العربية =

هذه العملية بالحسبان اختلاف التجريبتين ومن ثم اختلاف بنية الآخرية عند كلتا الحضارتين. فالإرث الاستشراقي كُتب في سياق يستمد جذوره من ثنائية روماني / برابري، ويستبطن فكرة المركزية الأوروبية كقوة عالمية وحيدة تُخضع باقي الشعوب، في حين لم تكن الحضارة العربية عند أوجها قوة وحيدة في العالم، ففي منطقة المتوسطي فحسب نازعتها الإمبراطوريتين البيزنطية والكارولنجية. لكن وحتى يستطيع العظمة السير في مشروع الاستشراق المعكوس وتبرير المقابلة الحدية عرب/برابرة فإنه يُطبقها فقط على الشعوب الخاضعة<sup>(١)</sup>، وسيعود ليعزل الحضارة البيزنطية من هذا التصنيف بعد إثباته وجود نظرة إيجابية في المصادر العربية عند حديثها عن الآخر البيزنطي<sup>(٢)</sup>، من قبيل الإشادة بشيم الأخلاق والشجاعة وحسن القوام والهيئة. لم تكن هذه الإشادة وإثبات نوع من الفضائل حاضرة في بنية الآخرية في أوروبا، فمنذ الإمبراطورية الرومانية إلى الفترة الاستعمارية ظلت

---

= الإسلامية في العصور الوسطى، ووصف هذه الثقافة لإثنوغرافيا الشعوب الأخرى على شكل الإثنوغرافية العامة التي هي الاستشراق المُعاصر»، يُنظر: العظمة، ص ١٣.

(١) يقول العظمة في ذلك: «كانت دار الإسلام عصب علاقة الآخرين بها والعنصر المحرك في تلك العلاقة. ولا نعني بالآخرين هنا الوحدات السياسية والثقافية والاجتماعية التي كانت قادرة على الدفاع عن نفسها بفضل قواها الذاتية أو بسبب بعدها عن دار الإسلام، بل تلك الوحدات التي كان من الممكن تطويعها لتلبية حاجات دار الإسلام»، يُنظر: العظمة، ص ٣١.

(٢) العظمة، ص ١١٩.



هذه البنية مُحْتَفَظَةٌ بثنائية روماني/برابري، وكل آخر مهما علا شأنه فهو إما «فيريتاس» همجي أو «فانيتاس» مغرور، وفي كلتا الحالتين يُصنَّف كبرابري مفتقر للفضائل<sup>(١)</sup>. أما في الجهة المُقابِلة فإنَّ بنية الآخِرية في السياق العربي لم تعتمد على مبدأ المناقضة -كما يذهب لذلك العظيمة- إذ لم يكن المجال السياسي لسلطة المملكات الإسلامية ولا حتى المجال الذي شمل الثقافة العربية هو الحد الفاصل بين المُتفوق ونقيضه -مهما كان الوصف الذي يُطلق عليه-. وهو ما أشار إليه ليبب عند تأكيده على أنَّ التراتبية التي أقامتها الثقافة العربية ليست حدودية: «لم ترسل النصوص العربية حدودًا ثقافية غير متحركة بينها وبين بقية العالم مثلما فعلت إغريقية الإغريقي ورومانية الروماني أو مسيحية المسيحي الأوروبي في نصوص القرون الوسطى»<sup>(٢)</sup>.

إنَّ ما يُمكن أن نخلص إليه بعد هذا النقد لفرضية العظيمة أنَّ بنية الآخِرية عند الرومان والتي ورثتها الحضارة الأوروبية من بعد هي بمثابة نظام ثنائي عمودي، حيث الآن الروماني يتموضع على الدوام في أعلى الترتيب مُعتبرًا نفسه الوحيد القادر على حيازة الفضائل وبلوغ الكمال البشري، ثم يأتي أسفل منه كل

---

(١) لقد كان هذا الوصف حاضرًا أيضًا في المتخيل البيزنطي أو اللاتيني عن العرب والمسلمين في العصر الوسيط؛ فعلى الرغم من التفوق الذي وصلت له الحضارة الإسلامية ظل وصفها بالبربرية والتوحش والشيطنة لصيقًا بها، كما تُظهر المصادر اللاتينية سواء عند المؤرخين أو عند رجال الدين.

(٢) ليبب، ص ٢٠٣.

الشعوب غير الرومانية -غير الأوروبية فيما بعد- مهما اختلفت نسبة تحضرها أو همجيتها. في حين يتشكل نظام الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية كدائرة مركزية يتوسطها العرب بفضائلهم، وتتقاطع هذه الدائرة مع دوائر أخرى تمثل ثقافة الشعوب والمجتمعات التي تعرف عليها العرب، وعلى قدر تحضرها تقترب من المركز، وعلى قدر همجيتها تبعد عنه لتدخل مجال المجهول.

### ٣- بنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية

إنَّ دراسة بنية الآخرية في الثقافة العربية «لا بد من أن تعتبر الامتدادات الحضارية لهذه الثقافة قبل النظر في علاقاتها الأفقية بالثقافات الأخرى»<sup>(١)</sup>. لقد أشرنا في الفصل الأول إلى جانب من هذا الامتداد الحضاري في العلاقة بين العرب والإمبراطورية البيزنطية الذي يحمل مُتخيلًا إيجابيًا. ولم يكن هذا الأمر رهين العلاقة مع بيزنطة فحسب، فبحكم السياق التاريخي كانت القبائل العربية على احتكاك بالحضارة الفارسية والهندية والصينية، وعلى علم بمدى قوتها الحضارية. وهو مُتخيل إيجابي لم يُمحَ كلية مع ظهور الإسلام وصعوده كقوة بارزة في الجزيرة العربية، فإذا ما رجعنا إلى بداية كتابة التاريخ العالمي في الثقافة العربية سواء مع اليعقوبي (ت. ٨٩٧) في تاريخه<sup>(٢)</sup>، أو المسعودي (ت. ٩٥٧) في

---

(١) نفسه.

(٢) أبو العباس أحمد اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا (بيروت: الأعلمي، ٢٠١٠).

مروج الذهب<sup>(١)</sup>، أو غيرهما من المؤرخين والجغرافيين الأوائل سنقف على نصوص كثيرة تُعلي من شأن الشعوب والحضارات التي تعرف عليها العرب، وتُقدم عنها نظرة إيجابية، وعلى الرغم من أنها لا تصل إلى صفاء الأنا العربي لكنها مع ذلك لا تقف على نقيضه مفتقرة لأي نوع من الفضائل.

إن السياق التاريخي لفترة الإسلام المبكر ساعد في ظهور هذا الوعي بالآخر المُتفوق والقوي. فقد جاءت النصوص الإسلامية الأولى مُدعّمة لهذا الجانب، لاسيما وأنّ الشرعية الدينية التي تحوزها أعطت لها قوة رمزية وتأويلية جنّبت الثقافة العربية من النزوع نحو إقصاء الآخر، فشكّلت بذلك نواة فكرية تسمح باستيعاب هذا الآخر المُختلف، ومن ذلك الآية التي تتحدث عن التعارف باعتباره غاية اجتماعية [الحجرات ٤٩: ١٣]، أو عن إتمام مكارم الأخلاق كمهمة رسالية جاء بها النبي ﷺ، كما وردت في النص التالي: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»<sup>(٢)</sup>، ومن المُناسب أيضًا في هذا السياق أن نُحيل على نص مسنود إلى النبي محمد ﷺ، يُمكن الاستفادة منه لإثبات أن الإسلام المبكر لم يرَ بجوهرانية الفضائل، جاء فيه: «مكارم

---

(١) علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق كمال حسن مرعي (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥).

(٢) أحمد بن عمرو البزار، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٩)، ج ١٥، ص ٣٦٤.

الأخلاق عشرة وقد تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، ويقسمها الله لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الباء، وإعطاء السائل، والمكافأة، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، وتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، والحياء رأسها<sup>(١)</sup>. إِنَّ أَهْمِيَّةَ هذه النصوص تتعدى ما قبليات النص أو سياقه التاريخي -الخاص بجزيرة العرب- لتتعداه إلى استعمالاتها ورهاناتها، كما هو الحال بالنسبة إلى النزعة الشعوية التي كثيراً ما احتجّت على نظام الحكم الأموي ذي النزعة المركزية العربية مُستندة إلى نصوص دينية من القرآن والحديث النبوي، مما يُؤكّد أنّ هؤلاء الشعوبيين وجدوا في النصوص الأولى للثقافة العربية ما يؤكد نديتهم للآخر العربي الذي أصبح مُتفوقاً -ولو سياسياً- في هذه المرحلة، وهو ما يُعطي طابعاً كونياً للفضائل وعدم اقتصرها على العرب فحسب.

إِنَّ هذا الجدل الثقافي الداخلي كان له دور مُهم في لفت الانتباه لفضائل الشعوب غير العربية، ولتراثها الزاخر بالمعارف، لاسيما بعد ظهور حركة الترجمة واتساع السلطة السياسية للإسلام، الذي صار معه الاحتكاك بالآخر ليس مادياً فحسب من خلال الحروب والتجارة بل أيضاً ذهنياً وذلك من خلال تناقل

---

(١) عبد الله بن وهب، الجامع في الحديث لابن الوهب، تحقيق مصطفى حسن حسين (الرياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٥)، ص ٥٩٥.

الأفكار والمعارف؛ لتُبرهن من خلاله الثقافة العربية الإسلامية على قدرتها في قبول الآخر والتواصل معه. يُمكن تأكيد ذلك من خلال الرجوع إلى العديد من المصادر المُدونة في الفترة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين. ولن نستفيض في هذا الجانب إلا بالقدر الذي يسمح لنا بإثبات فكرتنا عن الدوائر المُتداخلة باعتبارها بنية ذهنية استطاعت من خلالها الثقافة العربية تصنيف الآخر.

عبّر الجاحظ عن ذلك بشكل جلي وذلك في العديد من مؤلفاته. ونُحيل هنا على نص من مفاخر العرب قام فيه بنحت صور الآخرين بعد أن بلغ مُستوى المعرفة بهم درجة مُهمة من التطور، يقول في الجزء الذي خصصه لمقارنة الأمم في رسالته عن مناقب الترك: «ثم اعلم بعد هذا كلّ أنّ كلّ أمة وقرن وكلّ جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات، وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب وفي تأسيس الملك وفي البصر بالحرب فإنّك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية إلّا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور، وتصلح لتلك المعايين (...). كأهل الصين في الصناعات، واليونانيين في الحكم والآداب، والعرب فيما نحن فيه ذاكروه في موضعه، وآل ساسان في الملك، والأتراك في الحروب»<sup>(١)</sup>. يحتوي هذا النص على

---

(١) الجاحظ عمرو بن حبر، الرسائل السياسية، تحقيق علي أبو ملحّم (بيروت: دار الهلال، ٢٠٠٤)، ص ٥٠٩.

مُقارنات عديدة حاولنا اختصارها في الاقتباس قدر الإمكان، وهو وإن كان يعرض ما وصلت إليه المعرفة عن الآخر فإنه أيضًا يُؤطرها نظريًا في مقولته التالية: «ولكلّ نصيبٍ من المساوئ ومقدارٌ من الذنوب، وإنّما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ. فأما الاشتغال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوئ دقيقتها وجليلها وظاهرها وخفيّتها فهذا لا يُعرف»<sup>(١)</sup>. إنّ بنية الآخريّة كما يكشفها خطاب الجاحظ تندرج ضمن الامتداد التاريخي لبنية الآخريّة عند العرب من خلال انتقالها من الارتهان إلى المرجعية النصية إلى استدعاء آليات الحكم والمقارنة<sup>(٢)</sup> بعد أن راکمت الثقافة العربية معرفة مُهمّة بالآخر المُختلف. ولم يمنع الاختلاف الديني مع الآخر من الانصات إلى مكتسبات الآخر الحضارية والتزود منها عند الاقتضاء<sup>(٣)</sup>.

فإن كان نص الجاحظ الذي يعود للقرن التاسع يُعبر عن فترة «التبنيّن» -حسب تعبير ليب- والانتقال من الاعتماد على

---

(١) نفسه، ص ٤٩١. يبدو من المُناسب مقارنة النص للجاحظ الذي يكشف عن جانب مُهم من بنية الآخريّة في الثقافة العربية الإسلامية مع بنية الآخريّة الأوروبية التي تستند إلى ذلك التقسيم الصارم بين «المتحضر» الذي يحوز كل الفضائل وبين «البرابري» الذي لا فضائل لديه.

(٢) محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيّل: صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠)، ص ١١٨.

(٣) نفسه.

النص الديني في تحديد متخيل الآخر إلى الانتقال نحو معرفة إثنوغرافية ظهرت معها المقارنات بين فضائل الشعوب فإنَّ مرحلة القرن العاشر التي عرفت اكتمال البناء النظري لمتخيل الآخر ستزيد من تدعيم هذه المعرفة، لاسيما مع ظهور تآليف لجغرافيين من قبيل أحمد ابن فضلان (ت. ٩٦٠) وأبو زيد البلخي (ت. ٩٣٤) وأبو محمد الهمداني (ت. ٩٤٥)، وهو ما وجد له صدًى كبيراً عند كُتاب الأدب للقرن العاشر وأبرزهم أبو حيان التوحيدي (ت. ١٠٢٣م) الذي يُعيد نقل فكرة الجاحظ لكن بأسلوبه الخاص: «لكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشُرور والنقائص مفاضلة على جميع الخلق مفضولة بين كلهم»<sup>(١)</sup>؛ إنَّ هذا الاعتراف الذي ينقله التوحيدي يُشير إلى النسبية التي طبعتُ بنية الآخرة عند العرب، فليس صورة الآخر بالثابتة التي تنحو إلى التمنيظ، بل هي مُتغيرة حسب الظروف الاجتماعية والتاريخية التي أنتج فيه النص<sup>(٢)</sup>.

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠١٠)، ص ٥٧-٥٨.

(٢) على الرغم من أنَّ البنية الآخرة في السياق الأوروبي تمتاز بالثنائية الحدية، لكننا نجد في بعض النصوص التي أنتجها كُتاب العصر الوسيط ما ينحو إلى الاعتراف بالآخر، خصوصاً الآخر المسلم عندما كانت الخلافة العباسية في أوج قوتها، ولا يُمكن اعتبارها نزعة جديدة في بنية الآخرة؛ نظراً لثُدرة النصوص التي تدعم هذه الفرضية، وهو ما أشار إليه محمد الطاهر المنصوري، ويُمكن في هذا الصدد =

لقد بلورت الثقافة العربية الإسلامية في تجربتها التاريخية بنية آخريّة برهنتُ على قدرة لافتة على الإنصات إلى الآخر والانتقال من منجزاته الحضارات الأخرى<sup>(١)</sup>، وحاولنا أن نُبرز ذلك قدر الإمكان من خلال دراسة بنية الآخريّة عند العرب ونظيرتها عند الرومان لنصل إلى عدم صوابية ما ذهب إليه العظمة في فرضيته حول وجود ثنائية حدّية في السياق العربي الإسلامي. إنّ العرب وإن كانوا قد آمنوا بتميّزهم واصطفائهم نتيجة دوافع دينية إلا أنّهم لم يُصنّفوا الآخر ككتلة واحدة باعتباره شرّاً مُطلقاً بل ميّزوا بين الشعوب والأمم على قدر تفوقهم، واستفادوا منهم في أمور الدُّنيا ما كانوا في حاجة إليه من أجل بناء حضارتهم.

---

= الإحالة على الرسالة التي بعثها بطريرك القسطنطينية نيكولاس ميستيكوس Nicholas Mystikos (ت. ٩٢٥) إلى الخليفة العباسي، ومما جاء فيها: «لا يوجد في الكون سوى سلطنة الروم وسلطنة السراكنة، وهما مختلفان من حيث اللغة والدين والعادات، ولأنهما مختلفان يجب ألا يتحاربا». يُنظر في:

Mohamed Tahar Mansouri, "Les Musulmans à Byzance du VIIe au XIe siècle", in: *Eudes médiévales I : De Byzance et de l' Islam* (Mannouba: Publication de la Faculté des Lettres, des Art et des Humanité Mannouba, 2009), p. 46-66, p. 58; cf: Nicolas Ier Mystikos, *Letters*, J.H. Jenkins et L.G. Westerink (trans), (Washington: Center for Byzantine Studies, 1973), p. 3; Mohamed T. Mansouri, "L'oeil du grand rival, la ville vue par les Musulmans," *Autrement*, vol. 40 (Janvier 1996), p.154-170.

(١) أفاية، ص ٩.



## ● ثانيًا: الاستعمالات اللغوية في بناء صورة الآخر البيزنطي

### ١- تسمية العرب للبيزنطيين

تكشف اللغة عن جانب مُهم من تمثيلات العرب للآخر البيزنطي يسمح بالكشف عن بنية الأخيرة. تعود أقدم النصوص الإسلامية التي استعملت لفظة «الروم» للدلالة على البيزنطيين إلى القرآن نفسه، حيث وردت مرة واحدة في سورة تحمل اسم الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم ٢، ٣] وقد جاءت الآية كنبوءة بانتصار الروم في حربهم الطويلة ضد الفرس. أما في المصادر اللاحقة فإنَّ تسمية «الروم» هي الأكثر استعمالًا عند الحديث عن الآخر البيزنطي، ولم تَجِدْ كتب المغازي والسير -التي جعلناها مُدونة البحث- عن هذا الأمر.

تجدر الإشارة إلى أنَّ لفظة بيزنطة لا ترد في المصادر العربية، إلا إذا ما استثنينا الحديث عنها كمنطقة اختارها قسطنطين الأول Constantine I (ت. ٣٣٧) لتشييد عاصمته الجديدة بعد انتقاله من روما، وهو ما سبق وأورده المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف<sup>(١)</sup>. يبقى إذن استعمال مصطلح بيزنطة للدلالة على

---

(١) أبو الحسن علي المسعودي، التنبيه والإشراف، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي (القاهرة: دار الصاوي، ١٩٣٨)، ص ١٢٠؛ يُنظر أيضًا: ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو (بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢)، ص ٣٤.

الإمبراطورية هو تأصيل أكاديمي حديث، يهدف إلى تمييزها زمنياً عن الإمبراطورية الرومانية، وجغرافياً عن الإمبراطورية الكارولينية التي تنامي نفوذها في أوروبا الغربية.

على أنَّ البيزنطيين كانوا يرون أنفسهم امتداداً للإمبراطورية الرومانية، سواء على المستوى التاريخي أو على مستوى التسمية<sup>(١)</sup>، ومنذ منتصف القرن العاشر إلى منتصف الحادي عشر -وهي فترة الأوج بالنسبة إلى بيزنطة- كانت تربط ماضيها بالتراث الهيليني لإثبات تفوقها على باقي المنافسين<sup>(٢)</sup>، وكانوا ينظرون إلى منازلهم الغربي -الإمبراطورية الكارولينية- بنوع من الدونية<sup>(٣)</sup>، لاسيما بعد أن منح البابا ليون الثالث لقب إمبراطور «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» لشارلمان بداية القرن الثامن<sup>(٤)</sup>. فجاءت من ثم

---

(١) El-Cheikh, *Byzantium*, p. 21.

(٢) Hélène Ahrweiler, *L'idéologie Politique De L'empire Byzantin* (Paris: Presses universitaires de France, 1975), p. 60-61.

(٣) تذهب المؤرخة هيلين أهروايلر Hélène Ahrweiler إلى أنَّ التعبير عن تفوق بيزنطة يبرز أيضاً في اللاوعي، ففي لحظات الأزمة والتوتر بين بيزنطة والمملكات الرومانية الغربية بما في ذلك الكارولينجيين كانت بيزنطة تعتمد إلى تصنيف هذه المناطق بأنها عالم برابري، وفي ذلك تأكيد على مدى حضور النظرة التحقيرية للآخر المختلف المستمدة من التراث الإغريقي ثم الروماني.

يُنظر: Ahrweiler, p. 62.

(٤) السياق التاريخي لتعيين شارلمان إمبراطوراً رومانياً مقدساً يرجع إلى تداخل العديد من الأحداث يُمكن أن نجملها في النفوذ القوي الذي كانت تتمتع به السلطة الكنسية ممثلة في البابا، بالإضافة إلى تحول إيرين أثينا Irene of Athens وصية على العرش سنة ٧٨٠ ثم تعين نفسها إمبراطورة على بيزنطة بشكل رسمي ما بين =

التسمية التي استعملها العرب عند الحديث عنهم كقبولٍ واعترافٍ بهذا الامتداد، بعد أن دخل المصطلح إلى مجال اللغة العربية وبقي مُحافظًا على جذره اللغوي الإغريقي.

إن استعمال الثقافة العربية لمصطلح الروم يحمل مجموعة من الدلالات نستطيع من خلالها فهم الكيفية التي بُنيت بواسطتها صورة بيزنطة، وسنحددها في ثلاث عناصر رئيسة:

أولاً: أنَّ النظرة إلى الآخر البيزنطي كانت تستند إلى تصنيف دُنوي وليس ديني. فعلى الرغم من أنَّ بيزنطة كانت تدين بالمسيحية، إلا أنَّ مُدونة البحث المُعتمدة نادرًا ما تستعمل وصف «نصارى» عند الحديث عن بيزنطة، هذا بالإضافة إلى حضور

---

= سنوات ٧٩٧ و٨٠٢، الشيء الذي دفع البابا ليون الثالث لاعتبارها غير مؤهلة لمنصب الإمبراطور لاشتراط الذكورة فيه، ونصّب عوضًا عنها شارلمان ملك الكارولينجيين كإمبراطور للإمبراطورية الرومانية المُقدسة. سيتدارك البيزنطيون هذا الفراغ السياسي بشكل سريع لينقلبوا على الإمبراطورة إيرين ويُنصبوا نقفوز الأول Nikephoros I كحاكم شرعي. ومنذ ذلك الحين سترفض بيزنطة اللقب الذي أعطاه البابا إلى الكارولينجيين، مُعلنة أنها الامتداد التاريخي والشرعي للإمبراطورية الرومانية. قدّم المؤرخ النمساوي هاينريش فيشتيناو Heinrich Fichtenau دراسة مهمة للإمبراطورية الكارولينجية من خلال شخصية شارلمان، وقد تناول في إحدى فصولها: السياق السياسي والديني للقب الإمبراطور الذي مُنح له، واستتبع من علاقات سواء مع المؤسسة الدينية أو مع الإمبراطورية البيزنطية، يُنظر:

Heinrich Fichtenau, *The Carolingian Empire: The Age of Charlemagne*, Peter Munz (trans), (New York: Harper Torchbooks, 1964), p. 47-78.

المقابلة بين العرب والروم كتصنيف للمُختلف حضاريًا في بعض النصوص التي تتحدث عن الروم، ومن ذلك ما أورده معمر بن راشد في حديث مسنود إلى النبي محمد ﷺ: «أسعد العجم بالإسلام فارس، وأشقى العجم بالإسلام الروم»<sup>(١)</sup>، ونص آخر يُمكن إيرادُه في السياق ذاته: «أنا سابق العرب، وبلال سابق الحبشة، وصُهيبي سابق الروم، وسلمان سابق فارس»<sup>(٢)</sup>. الأمر الذي يُشير إلى أنَّ العرب والمسلمين رأوا في الروم آخرًا سياسيًا وحضاريًا أكثر من كونه آخرًا دينيًا. وما يؤكد هذا المُعطى أنَّ سُكان الشام والعديد من مناطق آسيا الوسطى بعد انتقال السيطرة السياسية على هذا المجال من بيزنطة إلى العرب لم يجرِ تعريفهم باعتبارهم رومًا، إذ صُنّفوا باعتبارهم «أهل ذمة»، وهو وضع ذو بُعدٍ سياسي وقانوني مُستحدث؛ صحيح أنَّه يستمد دلالته من المرجعية الدينية، إلا أنَّ التعديلات التي طرأت عليه حسب السياقات الاجتماعية والتاريخية تؤكد أثر السياسي في إعادة تأويل النص الديني.

يبدو أنَّ تغليب المجال السياسي على الديني كما يبرز في كُتب المغازي والسير، من خلال هذه المُقابلة الندية بين العرب والروم، يكشف في جانب مُهم منه عن الطريقة التي رأى بها العربي ذواتهم؛ على أنَّ هذا الامتداد لالنا المُتمركزة على

(١) معمر بن راشد، ج ١١، ص ٦٦.

(٢) معمر بن راشد، ج ١١، ص ٢٤٢؛ يُنظر أيضًا: ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٢.

الجانب الإثني بعد أن صار العربي واعياً بقدراته، تزامن أيضاً مع ظهور تركز ديني، ويجد أبرز تعبير له في كتب الفقه التي استحدثت تصنيفاً جديداً للمجال الذي تُسيطر عليه بيزنطة؛ إذ عوض الحديث عن الروم سيجري استعمال عبارة «أرض الكفر» أو «أرض الحرب». وإن كان الاستعمال مُختلفاً بين المصدرين فإنَّ الغرض منه واحد، يتجلى في إبراز مكانة الأنا في سياق كانت الذات العربية والإسلامية تبحث فيه عن القوة والسلطة، فجاء التعبير السياسي بمركية العرب المُحاطين بالآخر المُختلف عنهم حضارياً كبيزنطة والصين والهند والترك وغيرهم، وجاء التعبير الديني بمركية المسلم المُحاط بأرض الكفر؛ لذلك سنجد أن الفترة التي كُتِب فيها كلا المصدرين -نقصد كتب المغازي وكتب الفقه- كانت السلطة السياسية فيها بأيدي الأمويين، الذين استثمروا نجاح الدعوة الدينية لتثبيت أفضلية العرب ومركزيتهم. يجد إذن هذا السعي نحو التركز صيغاً مُتنوعة سواءً على المُستوى السياسي أو الفكري أو أيضاً الجغرافي<sup>(١)</sup>، حيث يكشف عن علاقات القوة ورغبة حثيثة في السيطرة والتوسع تدفع إلى تصنيف الآخر المُتموضع في الأطراف، وعلى حد تعبير بياتريكس

---

(١) أغلب مصادر الجغرافيين العرب في العصر الوسيط تتحدث عن مركز السلطة السياسية باعتباره مركز العالم، فكانت من ثم هذا الوصف من نصيب مدينة بغداد باعتبارها مدينة الخلافة العباسية.

«إنه الحلم السياسي الديني بالقوة هو الذي يدفع دائماً الإنسان إلى أن يتموقع في مركز الكون»<sup>(١)</sup>.

**ثانياً:** تكشف التسمية عن وجود علاقة القوة بين الأنا والآخر، وعندما تستعمل النصوص العربية تسمية الروم عند الحديث عن بيزنطة فإنَّ ذلك يُحيل على اعتراف بالآخر، على اعتبار أنها التسمية التي يُطلقها البيزنطيون على أنفسهم، في الوقت نفسه الذي يُحيل على كون بيزنطة من القوة الكافية -رمزياً ومادياً- لتفرض هذه التسمية على الآخرين بما فيهم العرب. سنجد هذه العلاقة المبنية على الاعتراف تختل عندما تكون موازين القوة لصالح الأنا العربي أمام آخر خاضع، حيث تُسميه ليس اعتماداً على ما أطلقه هذا الآخر على نفسه، ولكن من خلال ما يُمكن أن يكشف عنه مظهره الخارجي من طبائع تعتبرها الذات المُصنفة قاذحة في كماله، ومن ذلك التسميات التي أطلقها العرب على السود أو على بعض الفئات الاجتماعية. إنَّ هذه الطريقة في التسمية سوف تستعملها أيضاً بيزنطة عند الحديث عن العرب، إذ تورد المصادِر مجموعة من التسميات القذحية والتي تعود جذورها لفترة القرن الرابع، واستمرت إلى أواخر

---

(١) أسماء العريف بياتريكس، «الآخر أو الجانب الملعون»، في: الطاهر لبب (تحرير)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨) ص ٨٩-٩٨، ص ٩٢.

العصر الوسيط، ومن ذلك تسمية السراكنة<sup>(١)</sup> أو الهاجريون<sup>(٢)</sup>؛ وهي تسميات سنجدها حاضرة في حوليات ثيوفان، ومن ذلك ما ذكره عن محمد ﷺ باعتباره نبي السراكنة<sup>(٣)</sup>. كما سنجد الفكرة نفسها في اقتران التسمية بالهمجية واحتقار العرب في الخطاب الذي ألقاه الإمبراطور ليو السادس الحكيم Léon VI (ت. ٩١٢) في التآبين لأبيه باسل الأول Basil I (ت. ٨٨٦)، حيث جاء فيه: «كان أبناء هاجر منذ القدم مُعتادين على غزونا بكل وقاحة كالوحوش الهمجية»<sup>(٤)</sup>. وهي مما لا شك فيه صورة قد ترسخت منذ غزو العرب للشام في القرن السابع واقتطاع أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى، ولعل إيرادها على لسان الإمبراطور دليل على انتشار هذه الفكرة بين أوساط المثقفين ورجال السلطة<sup>(٥)</sup>. فمن

---

(١) Mohamed T. Mansouri, *Vocabulaire historique de Byzance* (Sfax : Amal Editions, 2003), p. 114-115 ;

وحول تطور تسمية سراكنة في المصادر البيزنطية للعصر الوسيط. يُنظر:

John Victor Tolan, *Saracens: Islam in the medieval European imagination* (New York: Columbia University Press, 2002), p. 105-134.

(٢) Mohamed T. Mansouri, "Byzantium and the Arabs from the VIIth to XIth Century," *Mediterranean world*, vol. (20 Juin 2010), p. 59-60.

(٣) Theophanes, p. 464.

(٤) Léon VI le Sage, *Oraison Funébre De Basile Ier par son fils léon VI le Sage*, Albert Vogt & Irénée Hausherr (edit/ trans), *Orientalia Christiana*, vol. 26, no. 77 (Roma: Pont. Institutum Orientalium Studiorum, 1932), p. 57; cited in Mansouri, *Vocabulaire*, p. 18.

(٥) Mansouri, *Vocabulaire*, p.19.

خلال هذه المقارنة يتضح أنَّ علاقات القوة في جانبها الرمزي بين العرب وبيزنطة لم تكن مُتماثلة، ففي الوقت الذي كانت فيه بيزنطة في المُتخيل العربي دليلاً على الحضارة والرفاه وحاضرة بالاسم الذي أطلقته بيزنطة على نفسها فإنَّ هذا الآخر كان يرى في العرب استمراراً للبرابرة، ويُسميهم في مصادره بما يُحيل على التحقير والازدراء.

**ثالثاً:** حاجة بيزنطة إلى مثل هذا النوع من الاعتراف<sup>(١)</sup>. فعند ظهور الإسلام كقوة إقليمية، كان مجال الإمبراطورية الرومانية القديمة تتنازعه قوتان، إضافة إلى الإمبراطورية البيزنطية التي ركزت سيطرتها واهتمامها على المنطقة الشرقية، بدأ يظهر نفوذ الكارولنجيليين في الجهة الغربية كقوة مُنافسة تفرض نفسها على البيزنطيين إلى درجة أن أطلق شارلمان على نفسه لقب الإمبراطور الروماني كشكل من أشكال اقتسام إرث الإمبراطورية الرومانية. داخل هذا السياق ستكون بيزنطة في حاجة إلى نوع من الاعتراف الرمزي من طرف قوة صاعدة في الشرق بأنَّهم الامتداد الحقيقي للإمبراطورية الرومانية القديمة. فكانت من ثم استفادة بيزنطة من العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والكارولنجيليين تنطوي على هذا الاعتراف، وإقرار تسمية «الروم» في هذه المُراسلات، لاسيما وأن هذه التسمية كما يذهب لذلك

---

(١) محمد الطاهر المنصوري، «صورة البيزنطيين في الحضارة العربية من خلال

اللغة»، أسطور للدراسات التاريخية، العدد ٦ (يوليو ٢٠١٧)، ص ٢٣-٣٢، ص ٢٦.



المنصوري<sup>(١)</sup> كانت لها قيمة كبيرة جدا بالنسبة إلى البيزنطيين في تلك الفترة.

## ٢- الاستعمالات اللغوية في قراءة المظهر الخارجي أ- جمال البيزنطيات

منذ فترة ما قبل الإسلام كان كمال الهيئة الجسدية حاضرًا في تمثيلات العرب عن البيزنطيين، واستمرت هذه الصورة حاضرة في المصادر العربية الإسلامية<sup>(٢)</sup>. وإن كانت كتب المغازي والسير جاءت في سياق غلبت عليه العلاقات العسكرية بين المسلمين الأوائل وبيزنطة فإنَّ اللغة المُستعملة تكشف عن جانب من هذه التمثيلات. من ذلك -كما سبق وأشرنا- استعمال تسمية «علاج» التي عادة ما تُطلق النصوص على البيزنطيين في ساحة المعركة،

---

(١) نفسه.

(٢) ومن ذلك ما ذكره أبو زيد السيرافي (ت. ٩٤١)، في أن رجال بيزنطة هم أتم الناس خلقة، ومنه أخذ وصف إمبراطور بيزنطة بملك الرجال، وهو أقدم نص في الثقافة العربية يورد هذا التمثيل عن بيزنطة، حيث أورده السيرافي على لسان ملك الصين فيما نقله عن رحلة ابن وهب القرشي إلى الصين، يقول في ذلك: «ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال؛ لأنه ليس في الأرض أتم خلقًا من رجاله ولا أحسن وجوهاً»، يُنظر: أبو زيد السيرافي، رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحشبي (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩)، ص ٦١؛ ثم نقل هذه الرواية من بعده أبو عبيد الله الأندلسي، يُنظر: أبو عبيد الله البكري الأندلسي، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج ١ ([بيروت]: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)، ص ٢٥٩.

وهي وإن كانت تصنيفاً قديماً في ظاهره إلا أنَّها تحمل في طياتها اعترافاً بقوة الخصم وشِدَّتته. إنَّ القراءة الخارجية للجسد لن تكون من نصيب رجال بيزنطة فحسب، إذ اهتمت المصادر العربية -بشكل مباشر أو ضمني- بالنساء أيضاً، وكُلما زاد الاحتكاك والتشاقف بين الحضارتين إلا وانعكس ذلك على التمثيلات والمُتخيل.

أما بالنسبة إلى مصادر المغازي والسير فإنَّ الحديث عن جمال نساء بيزنطة سيرد في موضع التحفيز للجيش المُسلم من أجل الالتحاق بالمعركة، وستتعمق معرفة العرب بالنساء البيزنطيات أساساً من خلال مؤسسة التسري<sup>(١)</sup>، على اعتبار أنَّ النسبة الأكبر من الوافدات إلى المجتمع المُسلم كُنَّ في الأصل غنائم حرب. غير أنَّ وضع هذه الفئة الاجتماعية سيختلف عن باقي العبيد والإماء، إذ سيجري توظيفهن كجوار للمُتعة أو للخدمة المنزلية<sup>(٢)</sup> سواء داخل بلاط الخلفاء وعلية القوم أو عند أسيدهن. يبقى الحُضور الوحيد لهذا الاستعمال ما نقلته هذه المصادر من وقائع غزوة تبوك، التي توجَّه فيها المسلمون للقاء

---

(١) Nadia M. El-Cheikh, "Describing the Other to Get at the Self: Byzantine Women in Arabic Sources (8th-11th Centuries)," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. 40, no. (1997) 2, p. 239.

(٢) أورد ابن فضلان في نص من رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد مجموعة من الصفات لفئة العبيد تُصنفهم حسب القصد من استعمالهم، =

بيزنطة، ومن ذلك ما نقله ابن إسحاق في رواية ابن هشام من أخبار الاستعداد للغزوة وكيف تعذر أحدهم بخشية من الافتتان بجمال نساء بيزنطة: «فقال رسول الله ذات يوم وهو في جهازه ذلك للجدّ بن قيس أحد بني سلمة: يا جدّ، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنّه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء منّي، وإنّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر»<sup>(١)</sup>؛ أما الواقدي فيروي الحدث نفسه لكن مع إضافة عنصر جديد للقصة يتجلى في محاولة النبي نفسه أن يُغري الجد بن قيس بغزو بيزنطة، لما سيعود عليه ذلك من سبي نسائهن: «قال رسول الله للجدّ بن قيس: أبا وهب، هل لك العام تخرج معنا لعلّك تحتقب من بنات الأصفر؟»<sup>(٢)</sup>. وهي الواقعة التي سيوردانها -ابن إسحاق والواقدي- كسبب في نزول الآية ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَنَ لِي وَلَا نَفْتَنِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة ٤٩].

= يقول فيها: «من أراد الجارية للذة فليخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية، ومن أرادها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية»، يُنظر: المختار بن الحسن بن بطلان، «رسالة جامعة لفنون نافعة في شري الرقيق وتقليب العبيد»، في: عبد السلام هارون (محقق)، نوادر المخطوطات، ج ١، ط ٢ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣)، ص ٣٥٢.

(١) ابن هشام، ج ٢، ص ٥١٦.

(٢) الواقدي، ج ٣، ص ٩٩٢.

إن كانت الأخبار عن غزوة تبوك من بين نصوص المغازي القليلة التي جاء فيها الحديث عن جمال نساء بيزنطة، ونقصد تحديدًا ما كُتب إلى حدود سنة ٨٣٣ تاريخ وفاة ابن هشام باعتباره آخر مدونة اعتمدها في البحث، فإن المصادر اللاحقة ستعرف غزارة في التمثلات. ذلك أن العذر الذي احتج به جد بن قيس عن عدم قدرته السيطرة على نفسه أمام جمال البيزنطيات يُشير إلى موضوع سيظل مُقترنًا مع المرأة البيزنطية في الكتب التي ألفت في العصر الوسيط، وخاصة الأدب والتاريخ والجغرافيا، ولن نبالغ إذا قلنا أن هذه الصورة لا زالت حاضرة في زمننا الراهن، أي أنها مصدر للفتنة والإغراء بشكل يُفقد الرجل العربي المُحارب قُدرته على السيطرة؛ لتوضع معه في قالب نمطي يتمحور أساسًا حول النشاط الجنسي بوصفها -المرأة البيزنطية- وسيلة للمُتعة<sup>(١)</sup>، لكن أيضًا مع النظر إليها بريبة، كونها تُمثل التهديد الدائم والمُستمر<sup>(٢)</sup>.

لقد جاء هذا الترغيب من خلال اقتران وصف نساء بيزنطة بالصفرة، وهو ما يُحيل على وصف للمظهر الخارجي ارتبط معه لون الشعر بدلالة رمزية سيجري استعمالها كتسمية ووصف عند الحديث عن بيزنطة.

---

(١) Mansouri, "L'image de Byzance dans les sources arabes," p. 478.

(٢) El-Cheikh, "Describing the other," p. 240.

## ب- دلالة ارتباط اللون الأصفر ببيزنطة

إذا ما أردنا أن نؤرخ لتطور الدلالات الرمزية للألوان فإنَّ اللون الأصفر من بين أبرز الأمثلة في الثقافة العربية الإسلامية<sup>(١)</sup>. وسنبداً أولاً بكتب المغازي والسير التي وصفت البيزنطيين ببني الأصفر وبنات الأصفر، ثم سنحاول تقديم بعض ما طرأ على رمزية اللون الأصفر من تغيير خصوصاً في علاقه مع الآخر.

بداية وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فإنَّ الحديث عن بنات الأصفر جاء في معرض الحث على الجهاد على اعتبار أنَّهن غنيمة تستحق عناء خوض معركة مع الجيش البيزنطي، كما أنَّ امتناع البعض عن الجهاد جرى تبريره كخوف من فتنة النساء البيزنطيات. كلا الموقفين يُشير إلى وصفٍ تفضيلي ارتبط باللون الأصفر والشقرة؛ فهو رمز للجمال. كما لا نغفل أيضاً عن أنَّ اللون الأصفر هو لون الذهب والعملات النقدية المُتداولة آنذاك، الذي سيرتبط بالغنى، فسواء امتلأت خزائن بيت المال من غنائم الحرب مع الفرس، أو ببيزنطة، أو من الضرائب الناتجة عن عمليات التوسع فإنَّ اللون الأصفر سيرتبط رمزياً بالجمال

---

(١) قدّم ألفريد مورابيا Alfred Morabia دراسة مهمة حول دلالة بعض الألوان في الأدبيات العربية الإسلامية للعصر الوسيط، لكن مع قيمة هذا العمل لم يدرس التطور التاريخي لهذه الدلالات؛ إذ اشتغل على توثيق المعلومات حول الألوان من مصادر مُتفرقة سواء جغرافياً أو زمنياً، يُنظر:

Alfred Morabia, "Recherches sur quelques noms de couleur en arabe classique," *Studia Islamica*, no. (1964) 21, p. 61-99.

والغنى<sup>(١)</sup>، ومن شغف المسلمين بهذا اللون جعلهم لا يتصورون المرأة الجميلة إلا وهي ترتدي ملابس ذات لون أصفر<sup>(٢)</sup>.

وعلاوة على ذلك لا تنحصر رمزية اللون الأصفر في مدلول واحد، بل قد يحمل المعنى ونقيضه<sup>(٣)</sup>. فإن كان هذا اللون يرمز إلى عدد من الصفات الإيجابية كالجمال والغنى والشهوة، وأحياناً للدلالة على تجلي المقدس<sup>(٤)</sup>، فهو أيضاً يرمز إلى سلبيات كالخوف والخداع والغدر<sup>(٥)</sup>. وفي الوقت الذي لا يرى بعض

---

(١) لعل أهم نص يُمكن من خلال الوقوف على هذا المزج بين الجمال والغنى من جهة، وبين اللون الأصفر وبيزنطة من جهة أخرى ما ذكره النابغة الجعدي في إحدى قصائده، حيث يُماثل فيها جمال الوجه بالدينار البيزنطي الذي يحمل صورة قيصر، يقول في ذلك:

نداماي عند المُنذر بن مُحَرِّقٍ

أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مُقفرا

كُهولاً وشَبَّاناً كأنَّ وجوههم

دنانير ممَّا شيفَ في أرض قيصرا

يُنظر: محمد أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق علي محمد البجادي (القاهرة: نهضة مصر، ١٩٨١)، ص ٦١٩.

(٢) Morabia, p. 95.

(٣) Ibid, p. 86-87.

(٤) من ذلك ما ذكره الواقدي في نص منسوب للنبي محمد ﷺ يقول فيه: «هذا جبريل مُعْتَجِرٌ بعمامة صفراء، آخذٌ بعنان فرسه بين السماء والأرض». يُنظر: الواقدي، ص ٨١.

(٥) توجد هذه الثنائية في العديد من الثقافات والأفكار الدينية؛ فالأصفر الحار المائل للبرتقالي -قريب من لون الشمس- سيكون رمز الذكاء والحكمة والحب الإلهي، =

الباحثين ما يؤكد أنَّ المصادر العربية والإسلامية تكشف عن وجود هذه الرمزيات المُتضادة للون الأصفر<sup>(١)</sup> فإنَّ دراسة أخرى كالتِي قدَّمتها المؤرخة الإسبانية ماريبل فييرو Maribel Fierro حاولت تفسير سبب ورود لفظة أصفر في عُملة نقدية سكها أبو السرايا الثائر على الخلافة العباسية سنة ٨١٥، حيث جاء في أحد وجوه العُملة «الفاطمي الأصفر». هل الأمر يتعلق بمماثلة للقوة البيزنطية من خلال تبني هذا الوصف، أم أنَّهما يشتركان في معنى آخر؟ حسب ما توصلت إليه فييرو فإنَّ المصادر لا تسمح بتفسير السبب الذي جعل أبو السرايا يُطلق على نفسه هذا اللقب في ثورته على الخلافة العباسية<sup>(٢)</sup>، تستثني من ذلك نصًّا انفرد الواقيدي بذكره في كتابه الردة؛ حيث يورد أن الراية التي حملها ثابت بن قيس الأنصاري في حربه ضد المُرتدين كان لونها أصفر<sup>(٣)</sup>. كما استطاعت فييرو من خلال تحليل دقيق لنصوص كُتبت في الفترة العباسية تفسير انتقال رمزية اللون الأصفر من الجانب الإيجابي بعد أن تلقَّب أبو السرايا بلقب «الفاطمي الأصفر» إلى الجانب

---

= في حين سيكون الأصفر البارد رمزًا للحسد وعدم الثبات والخيانة، يُنظر: فيليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس (دمشق: دار دمشق، ١٩٩٢)، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(١) Morabia, p. 95.

(٢) Maribel Fierro, "Al-Asfar," *Studia Islamica*, no. 77 (1993), p. 169-181, p. 175.

(٣) الواقيدي، الردة مع نبذة من فتوح العراف وذكر المشي بن حارثة الشيباني، تحقيق يحيى الجبوري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠)، ص ١٣١.

السلبى باعتبارها تصنيفًا تحقيريًا يُستعمل من طرف الإسطوغرافيا العباسية لوصف الخارجين على حُكمها، ليُصبح بذلك رمزًا للخيانة والغدر.

ليس بعيدًا من هذا الاستعمال في إيراد المعنى ونقيضه اختيار لفظة بني الأصفر عوضًا عن الروم عند الحديث عن الجيش الذي سيُقابله النبي محمد ﷺ في غزوة تبوك. فقد أورد الواقدي ما قاله ابن أبيّ عند تخلفه: «يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قِبَل له به، يحسب محمدًا أنَّ قتال بني الأصفر اللعب»<sup>(١)</sup>، إن هذا التخويف من بني الأصفر النابع من غدر وخيانة فئة المُنافقين على حد تعبير الواقدي وجميع كتاب المغازي والسير يُرافقه أيضًا في سياق الحديث عن الغزوة نفسها ترغيب بنات الأصفر من أجل الالتحاق بالجيش.

سيعرف القرن الحادي عشر تغييرًا في معاني الألوان. إذ لن يرد وصف بيزنطة من خلال لون مظهرها الخارجي، وإنما من خلال الدين والأخلاق والمعرفة، يرجع ذلك تحديدًا كما يذهب المنصوري إلى تعمق المعرفة بالآخر البيزنطي<sup>(٢)</sup> نتيجة التبادل، والتعايش، والجوار. في الوقت نفسه فإنَّ المعنى السلبى للون الأصفر الدال على الغدر والخيانة سيزيد تأكيدًا من خلال انتقال الوصف من إطلاقه على بيزنطة كآخر مُختلف ظاهريًا إلى اليهود

---

(١) الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ٩٩٥.

(٢) Mansouri, "L'image de Byzance," p. 479.



كآخر ديني، حيث فُرض عليهم في مراحل مُعينة أن يضعوا قطعة قماش بلون أصفر على ثيابهم؛ لتمييزهم عن باقي المُسلمين<sup>(١)</sup>.

### ● ثالثاً: رهانات الخطاب حول الآخر البيزنطي

لقد كانت صورة بيزنطة والبيزنطيين خاضعة لرهانات الخطاب الذي أنتجه المسلمون. وإن بدا أن هذه الصورة ستتغير بعد القرون اللاحقة نتيجة الاحتكاك المستمر بين دار الإسلام ودار الحرب -كما تنعتها المصادر العربية- فإنَّ الفترة الأولى تميَّزت بالحضور المكثف للمُتخيل. سنُحاول التركيز في هذا الجزء على دراسة بعض الجوانب من رهانات الخطاب حول بيزنطة، من خلال ما تناقلته المُدونة من أخبار عن القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ومنطقة الشام أولى الأراضي التي فتحها المسلمون، وانتزعوها من خصمهم البيزنطي.

#### ١- القسطنطينية: المدينة المُشتهاة

تُعتبر القسطنطينية مجاًلاً خصباً تركّزت فيه صور الإعجاب العربي بالآخر البيزنطي، كونها أعظم حواضر الإمبراطورية البيزنطية. يرد هذا الإعجاب بمدينة القسطنطينية من خلال عدة مُستويات، فعند الحديث عن موقعها الجغرافي تُصورها الإسطوغرافيا العربية كقلعة ضخمة مبنية فوق الماء؛ كونها مُحاطة

---

(١) Mohamed T. Mansouri, *Du voile et du Zunnâr: Du code vestimentaire en pays d'islam* (Tunis : L'Or du temps, 2007), p.147-154.

بالبحر من الجهات الثلاث، ومحصنة من الجهة الرابعة بسور عظيم<sup>(١)</sup>، مما جعلها في ذلك العصر حاضرة منيعة، وواحدة من أصعب المدن على الغزو<sup>(٢)</sup>. فقد استطاعت الصمود أمام أول حصار ضربه المسلمون سنة ٦٧٤، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبعدها الحصار الثاني والأخير سنة ٧١٧ في خلافة سليمان بن عبد الملك، وجرى تلقي هذه الأحداث في كتب التاريخ باحتفاء شديد<sup>(٣)</sup>، سواء تلك التي تنقل الأخبار، أو التي تنسج منها قصصا للبطولات، أو حتى تلك التي تتحدث عن نهاية العالم.

إنَّ هذه المنعة لن تكون عصية على القدرة الإلهية، الشيء الذي يُفسح المجال للمتخيل الديني؛ ليُجعل من مُميزات القسطنطينية المدعاة للزهو والكبر من طرف البيزنطيين سبباً في إلحاق العذاب بهم، ومن ذلك ما جاء على لسان كعب الأخبار من نبوءة تتوعّد القسطنطينية بالخراب<sup>(٤)</sup>؛ ونظراً لأنَّ عذاب الله لم

---

(١) في وصف جغرافية القسطنطينية كما تراءت للمؤرخين والرحالة المسلمين خلال العصر الوسيط، يُنظر: ميكيل، ج ٢، ص ١٨٧-١٩٢.

(٢) Mansouri, "L'image de Byzance," p. 486.

(٣) El-Cheikh, *Byzantium...*, p. 62.

(٤) ينقل الطبري الحوار الذي دار بين كعب الأخبار وعمر بن الخطاب بعد أن فتح الجيش الإسلام مدينة أورشليم، حيث يذكر كعب أنَّ نبوءة لأحد أنبياء بني إسرائيل تحدّثت عن فتح الفاروق للمدينة وتخليص سكانها من ظلم بيزنطة، ثم توعّد الله بخراب القسطنطينية، وسنورد النص نظراً لأهميته في تدعيم فرضيتنا حول حضور أحداث نهاية العالم في نسج المتخيل حول بيزنطة، يقول كعب: =

يحل عليها حتى اللحظة التي دُوت فيها كتب المغازي والسير فإنَّ التفسير الديني الذي وظفته النصوص تجلّى في جعل سقوط القسطنطينية حدثاً أخروياً يُنذر بنهاية العالم. ولن يكون هذا الادعاء ذا قوة على الإقناع إلا إذا جاء كنبوءة تُسند إلى النبي مُحَمَّد ﷺ نفسه؛ وهذا ما لجأ إليه الخطاب حول بيزنطة؛ إذ حاول تبرير الصعوبات التي واجهت الأمويين في غزو المدينة، في الوقت نفسه الذي شحذ همة الجيش المُسلم لمُواصلة الغزو باعتباره مُهمة دينية، وهو ما يُمكن إثباته من خلال هذا النص الذي أورده معمر بن راشد مُسنداً روايتها إلى ابن مسعود الذي قال:

«إنّها ستكون بينكم وبين هؤلاء ردة» - قال حميدٌ: فقلت للرجل: الروم تعني؟ قال: نعم - ويستمدّ المؤمنون بعضهم بعضاً،

= «إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم [يقصد عمر] نبي منذ خمسمائة سنة، (...) قال إنَّ الروم أغاروا على بني إسرائيل فأذبلوا عليهم فدفنوه، ثم أديلوا، فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس، فبعثوا على بني إسرائيل، ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت، فبعث الله نبياً على الكناسة، فقال أبشري «أورى شلم»، عليك الفاروق ينقيك مما فيك، وبعث إلى القسطنطينية نبي فقام على تلها، فقال: يا قسطنطينية ما فعل أهلك ببيتى، أخربوه وشبهوك كعرشي وتأولوا علي، فقد قضيت عليك أن أجعلك جلعاء يوماً ما، لا يأوي إليك أحد، ولا يستظل فيك (...) أذاك الفاروق في جندي المطيع ويدركون لأهلك بشارك».

يُنظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار التراث، ١٩٦٧)، ج ٣، ص ٦١١-٦١٢. يُنظر أيضاً: ميكيل، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.

فيقتلون، فتشترط شرطة للموت ألا يرجعوا إلا غالبين، (...) فينطلقون حتى يدخلوا قسطنطينية، فيجدون فيها من الصّفراء والبيضاء ما أنّ الرجل يتحجّل حجلاً، فبينما هم كذلك إذ جاءهم الصّريخ أنّ الدّجال قد خلف في دياركم، فيرفضون ما في أيديهم (...) فيبعثون منهم طليعة عشرة فوارس، أو اثني عشر، قال ابن مسعود: قال النّبي ﷺ: إنّني لأعرف أسماءهم وقبائلهم وألوان خيولهم، هم يومئذ خير فوارس في الأرض، فيقاتلهم الدّجال فيستشهدون»<sup>(١)</sup>.

إنّ غزو القسطنطينية كما يُعبر عنه هذا النص هو الرهان الحقيقي وراء هذه الملحمة التي غُلفت بدلالات ورمزيات دينية، إنّ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية مرغوبة إلى درجة أنّ الغنائم التي سيحصل عليها المسلمون ستغنيهم عما سواها من موارد، دون أن يغفل النص عن إيراد النساء البيزنطيات ضمن هذه الغنيمة. يُمكن إذن أن نُرجع سبب هذا التوق لغزو القسطنطينية وتحويلها إلى دار الإسلام نظراً لما تتمتع به المدينة من مزايا عديدة استطاعت من خلالها أن تفرض نفسها في العصر الوسيط كأفضل وأجمل حواضر المنطقة<sup>(٢)</sup>. وإنّ كان للعامل الدنيوي أثر في تحديد رهانات الخطاب، الذي نجح في توظيف هذا المُتخيل؛ فإنّ محاولة ضم القسطنطينية إلى أرض الإسلام والتحفيز على غزوها

(١) معمر بن راشد، ج ١١، ص ٣٨٥-٣٨٧.

(٢) Mansouri, "L'image de Byzance," p. 487.

يحتاج أيضًا لحث ديني يسمح باستمرارية الغزو دون توقف، فجاء من ثم النص ليُبرز أهمية التضحية في سبيل هذه الحرب الدينية، جاعلاً من القتلى خير فوارس الأرض.

علاوة على ذلك فإنَّ فتح القسطنطينية يعني زوال العدو الأزلي والمنافس للدود للخلافة الإسلامية، فالساعة لا تقوم كما جاء في سيرة ابن إسحاق حتى تسقط الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية<sup>(١)</sup>. وإن كان الوجود الفارسي قد انتهى في المرحلة الأولى من التوسع العربي، فإنَّ الآخر المنافس سترسم معالمه تحديداً في بيزنطة الذي ستكون هزيمته بمثابة تمهيد لملحمة أخيرة تُسدل الستار على تاريخ الصراع بين الإسلام والكفر، فبعد تحقق النبوءة بالانتصار المادي متمثلاً في هزيمة بيزنطة العدو السياسي فإنَّ انتصاراً رمزياً يجب تحقيقه على شخصية الدجال المُتخيَّلة باعتباره العدو الديني.

أعطى هذا النص السالف الذكر سبباً للخلافة الإسلامية يُبرّر توالي إرسال الجيوش من أجل فتح القسطنطينية، ولم تكن مُعاهدات السلم بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة -سواءً الأموية أو العباسية- سوى مرحلة من أجل الاستعداد لشنّ غزوة جديدة.

---

(١) ابن إسحاق، ص ٢٦٧.

## ٢- الشام: أرض المؤمنين

سينعكس التصنيف التفضيلي للقسطنطينية على الشام أيضاً باعتبارها أولى المناطق التي سيطر عليها المسلمون في حروبهم ضد بيزنطة. وكان للسياق السياسي أثر في إنتاج هذا الخطاب، ففترة التدوين تزامنت مع سيطرة الأمويين على الخلافة التي اتخذت من دمشق عاصمة لها.

التأكيد على أن الشام ستبقى تحت سيطرة المسلمين كان حاضراً في مصادر المغازي والسير، لاسيما وأن الفترة كانت لا تزال تشهد محاولات من بيزنطة لاستعادة نفوذها على المنطقة. ومن أجل التأكيد على بقاء الشام منطقة إسلامية ينقل الواقدي مجريات الصراع التي عاينها أو سمع أخبارها ليُسقطها على الماضي كنبوءة ذكرها النبي في غزوة الخندق:

«وكان كلما ضرب ضربةً يتبعه سلمان ببصره، فيبصر عند كلّ ضربةٍ برقّةً، فقال سلمان: يا رسول الله، رأيت المعول كلما ضربت به أضواء ما تحته. فقال: أليس قد رأيت ذلك؟ قال: نعم. قال النبي ﷺ: إنّي رأيت في الأولى قصور الشّام، ثمّ رأيت في الثّانية قصور اليمن، ورأيت في الثّالثة قصر كسرى الأبيض بالمدائن (...). هذه فتوحٌ يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان لتفتحنّ الشّام، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته،

وتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحدٌ، ولتفتحن اليمن، وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى بعده»<sup>(١)</sup>.

إنَّ الإلحاح على بقاء الشام تحت النفوذ الإسلامي يُدعّم أيضًا بذكر صفة القاطنين بها، إذ هم المؤمنون المُتمسكون بنقاء الإسلام في فترة تسود فيها الأزمات والاضطرابات: «ليأتينَّ على النَّاس زمانٌ لا يبقى فيه مؤمنٌ إلَّا كان بالشَّام»<sup>(٢)</sup>. وداخل هذا التصنيف المبني على الإيمان كميزة إيجابية سيجري وضع تصنيفات للمناطق الخاضعة للنفوذ الإسلامي بطريقة تؤكد تفوق الشام، فعندما أراد الخليفة عمر أن يسكن العراق نصحه أحدهم قائلاً: «لا تفعل، فإنَّ فيها الدَّجال، وبها مَرَدَّةُ الجنِّ، وبها تسعة أعشار السَّحر، وبها كلُّ داءٍ عضالٍ»<sup>(٣)</sup>، ويزيد هذا التحقير لمناطق إسلامية كالבصرة ومصر كما ورد في هذا النص: «موضع قدم إبليس بالبصرة، وفرَّخ بمصر»<sup>(٤)</sup>. وحدها الشام التي تستحق أن تكون مستقر الخليفة وعاصمة المسلمين.

وكما هو الحال بالنسبة إلى القسطنطينية في المزج بين المتخيل الدنيوي والديني فإن الشام أيضًا عرفت هذا المزج، إذ لطالما رأى فيها العرب الأرض الطيبة مقارنة مع شدة العيش وقساوته في الجزيرة العربية. وهو المُتخيل الذي ترسخ أيضًا في

(١) الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٤٥٠.

(٢) معمر بن راشد، ج ١١، ص ٣٧٣.

(٣) نفسه، ج ١١، ص ٢٥١.

(٤) نفسه.

مصادر المغازي، حيث يورد معمر بن راشد حوارًا بين عمر بن الخطاب ويزيد بن أبي سفيان:

«رأى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان كاشفًا عن بطنه، فرأى جلدَةً نقيّةً فرفع عليه الدّرة، وقال: أجلدة كافر؟ فقليل له: إنّ أرض الشام أرضٌ طيّبة العيش، فسكت»<sup>(١)</sup>. وكثيرًا ما ينقل معمر مثل هذه الاعتراضات على الذين انتقلوا للعيش في الشام، ثم يورد الجواب عليها بصيغ تفضيلية يمزج فيها أحيانًا بين البُعد الدُّنيوي كما ورد في النص السابق وبين البُعد الديني، وحين يُعوّزه ذلك لا يرى بأسًا من تأكيد ما ذهب إليه بآراء من التراث اليهودي أو المسيحي، ومن ذلك ما أورده في النص التالي: «قال عمر بن الخطاب لكعب [المقصود كعب الأخبار]: ألا تتحوّل إلى المدينة؟ فيها مهاجر رسول الله ﷺ وقبره، قال كعب: إنّني وجدت في كتاب الله المنزل أنّ الشام كنز الله من أرضه، وبها كنزه من خلقه»<sup>(٢)</sup>.

فهذا المُتخيل الذي أنتجه هذا الخطاب وغيره كثيرٌ في الكتب التي اهتمت بالفتوح الإسلامية للشام، يعكس هذا الامتداد للمُتخيل البيزنطي وكيف نظر العرب في فترة الإسلام المُبكر إلى الحواضر البيزنطية نظرة إعجاب وتفضيل، حفّزتهم على غزوها وضمها إلى النفوذ الإسلامي، خصوصًا بعد أن آمن

(١) نفسه، ج ١١، ص ٨٦.

(٢) نفسه، ج ١١، ص ٢٥١.



العرب بأنهم قوة إقليمية بإمكانها الوقوف بندية أمام الإمبراطورية البيزنطية.

ما يُمكن أن نخلص إليه بشأن دراسة أوجهٍ مُحددة من رهانات الخطاب حول بيزنطة أن المُتخيل الذي جرى إنتاجه له من القوة الرمزية ما جعله قادرًا على التأثير في المجتمع والسياسة وعلاقات القوة، إنَّها ليست مُجرد صور عن الآخر معزولة عن الواقع، بل هي بنية ذهنية تُمارس فعلها على باقي البنى التي تتألف منها الجماعة البشرية.

#### ● خلاصة:

لقد حاولنا في هذا الفصل دراسة بيزنطة المُتخيلة عند العرب من خلال الاستعمالات اللغوية وتوظيفاتها، وهو أمر استدعى منا بداية أن نُحدد العناصر الأساسية لبنية الآخرية في الثقافة العربية الإسلامية من أجل فهم وضعيتها بيزنطة كآخر. وقد تبين لنا أنَّ إسقاط ثنائية روماني / برابري على التراث العربي لا يسمح بفهم معرفي لبنية الآخرية؛ إذ يُخفي خصوصية هذا التراث ويطمس جانبًا مهمًّا من الاعتراف والقبول بالآخر.

من ناحية أخرى فإنَّ صورة بيزنطة تتحدد من خلال استعمالات ورهانات الفاعلين. ويُمكن القول بأنَّ الجانب اللغوي يُعد من بين أعقد الإشكاليات التي تعترض البحث حول المُتخيل البيزنطي. إذ اللغة المُستعملة في النص ثم طريقة توظيف الخطاب

يكشفان عن جانب مُهم من المُتخيل الذي رافق العرب في هذه الفترة المُهمّة من الإسلام المُبكر. خاصّة وأنّ الصراع العسكري الذي وسم العلاقات العربية البيزنطية، كان له أثر في تنامي وعي العرب بوحدتهم الدينية والسياسية من جهة؛ ومن جهة ثانية أسهم في إنتاج خطاب ديني يتنبأ بفتح الشام والقسطنطينية. وإن جرى ضم الشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب فإنّ القسطنطينية ظلت عصية على الفتح وبعيدة المنال لتحوّل تلك النبوءات التي لم تتحقّق بعدُ إلى أحداث أخرى سيحقّق معها هزيمة بيزنطة ودخول المسلمين إلى القسطنطينية في نهاية التاريخ. لذلك ليس من الغريب داخل هذا السياق المشحون برغبة في السيطرة أن يكون المُتخيل هو المُتحمّكة في رسم صورة بيزنطة.

## خاتمة

استنادًا إلى الفرضية التي انطلقنا منها في هذا البحث؛ فإنَّ صورة بيزنطة في المُتخيّل العربي تحدّثتْ معالمها مع المُتغيرات التي طرأت على البنيات الذهنية والاجتماعية، على إثر نجاح التجربة النبوية، ثم ما أسفر عنه ذلك من اتصال سياسي وثقافي مع الآخر البيزنطي يطبعه الصراع العسكري. وعلاوة على ذلك فإنَّ المُتخيل حول بيزنطة الذي تشكل خلال هذه اللحظات الحاسمة قد جرى تدوينه في كتب المغازي والسير، الشيء الذي يُبرز أهمية هذه المصادر باعتبارها أولى الكتابات العربية الإسلامية التي تسمح برصد صورة الآخر البيزنطي.

على أنَّ الخطاب الذي يتضمن صورة الآخر البيزنطي قد جرى ترسيخه في الثقافة العربية الإسلامية، بعد أن احتُفِظَ به كأخبار مُسندة إلى النبي محمد ﷺ؛ لتتحول معها إلى نص ديني له قُدسيته ومكانته عند المسلمين. تكمن خطورة هذا التوظيف في تحول صورة الآخر إلى جوهرٍ ثابتٍ لا يتغير مع تغير الظروف

السياسية والاجتماعية، على اعتبار أنَّ المُتخيل قد انتقل من مجال التمثلات البشرية إلى مجال الإخبار الإلهي. ولا أدلَّ على هذه الخطورة مما نسمعه في زمننا الراهن من توظيف لهذه النصوص الدينية من أجل تبرير ما تعيشه المُجتمعات العربية من حروب واقتتال.

لقد كان لإدراج صورة بيزنطة داخل النص الديني الذي تبلور في فترة الإسلام المبكر أثر في تقييد كل مُحاولات الفاعلين في إعادة وضع تصنيفات جديدة، وهو ما حاولنا تأكيده في هذا البحث من خلال رصد استمرار بعض التصنيفات في الكتابات اللاحقة لأخباريين وجُغرافيين ورحالة، غير أنَّ ذلك لم يمنع بعضهم من إعادة توظيف هذا المُتخيل لرهاناتهم الخاصة؛ إذ على مدار الحديث عن بيزنطة تبلورت عملية بناء للذات وللأنا.

لقد توصلت هذه الدراسة إلى أنَّ فترة التفوق العربي التي دُونت فيها كتب المغازي والسير لم تمنع من وجود تصنيفات تفضيلية وتمثالات إيجابية عن الآخر البيزنطي، قد يكون للدين دور في إنشائها؛ فبيزنطة لم يجرِ الحديث عنها بشكل سلبي في النص القرآني، كما أنَّ الدين الإسلامي باعتباره استمرارًا لدعوة الأنبياء قبله سيكون له أثر في إنتاج مُتخيل إيجابي عن بيزنطة المسيحية. غير أننا أكدنا أنَّ العامل السياسي والاجتماعي كان الأكثر تأثيرًا؛ إذ لطالما نظر العرب نظرة إعجاب بالتنظيمات السياسية البيزنطية وأيضًا بنمط الحياة والعمران في المدن التابعة لها. وهو ما تؤكدُه العديد من النصوص بشكل جليّ، التي نقلت مُتخيلًا إيجابيًا عن

منطقة الشام المتأثرة بأسلوب الحياة البيزنطي على حساب مناطق أخرى كانت تُعتبر امتدادًا للإمبراطورية الفارسية، كما يُمكن رصد تطور هذه الصورة في العديد من الكتابات اللاحقة التي أشادت بحواضر كُبرى من قبيل القُسطنطينية عاصمة الإمبراطورية، المدينة التي يتوق المسلمون إلى فتحها تحقيقًا لنبوءات أوردتها كتب المغازي والسير.

إنَّ هذا البحث من خلال دراسته للتمثيلات حول بيزنطة لا يسمح بفهم العلاقات العربية - البيزنطية في الفترة المُبكرة فحسب بل أيضًا يُعين على إدراك بنية الآخريّة في هذه النصوص. لقد بلورت الثقافة العربية الإسلامية في تجربتها التاريخية بنية آخريّة برهنتُ على قدرة لافتة على الإنصات إلى الآخر والانتهاز من منجزات الحضارات الأخرى، هذا لا يمنع من أن العرب صنفوا الشعوب الخاضعة لهم سياسيًا بتصنيفات تحقيرية، غير أنَّ الأمر بالنسبة إلى بيزنطة ظل مُختلفًا؛ إذ هي دائمًا «العدو الصديق» حسب تعبير المؤرخ الفرنسي جيلبير داكرون.

وإذا ما أردنا الانتقال من خصوصية هذا البحث الذي تطرق لدراسة المُتخيل البيزنطي لنضع مُحددات عامة تسمح بدراسة مُتخيل الآخر، فبالإمكان القول بأنَّ صورة الآخر كما تتمثلها الذات لا تتشكل باعتبارها صورة موضوعية؛ إذ هي انفعال يتحدد بشكل أساسي من خلال ما يراه الأنا. وهذا ما يجعل منها صورة علائقية بامتياز؛ إذ لا يُمكن الحديث عن أحدهما بغياب الآخر،

بل إنّ الذات لا تتحدد بدءًا إلا من خلال وضع نفسها في مُجابهة ذوات أخرى.

يسمح لنا هذا الاستنتاج بأنّ نؤكد على أنّ التاريخ العربي الإسلامي هو تاريخُ علاقاته بالآخر، وأنّ البحث في الذات يتضمن أيضًا البحث في بنية الآخريّة. على أنّ صورة الآخر المُرتبطة بذاتية نظرة الأنا تبقى رهينة عوامل جُزئية ومرتبطة بسياق تاريخي؛ إذ لا تُعالج كل أفراد المُجتمع أو كل التراث الثقافي، يكفي أن ترسم كتب المغازي والسير صورة عن بيزنطة في ظرفية تاريخية مُحددة طبعها الصراع العسكري، ليكون ذلك كافيًا بإصدار حُكم قيمة حول بيزنطة يُرافق الكتابات اللاحقة. يؤدي التغيير المستمر لهذه العوامل إلى جعل العلاقة بين الأنا والآخر نسبية، غير أنّ إعادة تشكيلها النمطي كبنية ذهنية يُكرس فكرة عدم قبولها للتغيير، فإن كان للحدث التاريخي منطقه في التأكيد على التغير والتبدل فإنّ الصور النمطية التي تُشكّل علاقة الأنا بالآخر لا تخضع دائمًا لنفس هذا القانون. إنّ لاموضوعية هذه العلاقة وتعيّنها الذاتي يدفع إلى القول بأنّ تجاوزها لا يتم إلا بالوعي به، ومن ثمّ فما دمنا واعين أنّ هذا الآخر القابع في تمثالتنا ليس سوى انعكاس لذاتنا، وأنّ حقيقته تتطلب ابتعادًا عن الأحكام المُطلقة والمعيّارية فإنّ ذلك من شأنه أن يُخفف من حدة العداء، ومن حدة استنفار الهويات بشكل يسمح لنا بتعقل علاقاتنا مع الآخر سواء الراهنة أو في امتداداتها التاريخية.

## المصادر والمراجع

### • العربية:

#### كتب:

ابن إسحاق، محمد. سيرة ابن إسحاق المُسَمَّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي. تحقيق محمد حميد الله. الرباط: معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ١٩٧٦.

ابن راشد، معمر. «كتاب الجامع». في: عبد الرزاق الصنعاني. المصنف. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. المجلد ١٠ - ١١. ط٢. بيروت: المكتب الإسلام، ١٩٨٣.

ابن منظور، محمد. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٩٩٤.

ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وآخرون. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥.

- ابن وهب، عبد الله. **الجامع في الحديث لابن الوهب**. تحقيق مصطفى حسن حسين. الرياض: دار ابن الجوزي، ١٩٩٥.
- أفاية، محمد نور الدين. **الغرب المتخيل: صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط**. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.
- الأندلسي، ابن صاعد. **طبقات الأمم**. تحقيق لويس شيخو. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢.
- الأندلسي، أبو عبيد الله البكري. **المسالك والممالك**. تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري. ج ١. [بيروت]: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢.
- البزار، أحمد بن عمرو. **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**. تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرون. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٩.
- بلقزيز، عبد الإله. **تكوين المجال السياسي الإسلامي: النبوة والسياسة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- بن جعفر، قدامة. **الخراج وصناعة الكتابة**. بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١.
- التوحيدي، أبو حيان. **الإمتاع والمؤانسة**. تحقيق عبد الرحمن المصطاوي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠١٠.



الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته. نقد العقل العربي ٣. ط٤. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

الجاحظ، عمرو بن حبر. الرسائل السياسية. تحقيق علي أبو ملحم. بيروت: دار الهلال، ٢٠٠٤.

جعيط، هشام. مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام. في السيرة النبوية ٣. بيروت: دار الطليعة، ٢٠١٥.

جواد، العلي. المُفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط٢. بغداد: د.ط، ١٩٩٣.

الحلبي، علي بن إبراهيم. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦.

سالم، عبد الرحمن. المسلمون والروم في عصر النبوة: دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٧.

السيرافي، أبو زيد. رحلة السيرافي. تحقيق عبد الله الحبشي. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩.

سيرنج، فيليب. الرموز في الفن، الأديان، الحياة. ترجمة عبد الهادي عباس. دمشق: دار دمشق، ١٩٩٢.

شهيد، عدنان. روما والعرب: مقدمة في دراسة العلاقات بين بيزنطة والعرب. ترجمة قاسم محمد سويدان. دمشق: دار كيوان، ٢٠٠٨.

- الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار التراث، ١٩٦٧.
- العظمة، عزيز. العرب والبرابرة: المسلمون والحضارات الأخرى. لندن/ قبرص: دار رياض الريس، ١٩٩١.
- العلي، صالح أحمد. تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية. بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٠.
- فازيو، نبيل. الرسول المُتخيل: قراءة نقدية في صورة النبي في الاستشراق. بيروت: منتدى المعارف، ٢٠١١.
- القرشي، محمد أبو زيد. جمهرة أشعار العرب. تحقيق علي محمد البجادي. القاهرة: نهضة مصر، ١٩٨١.
- المسعودي، أبو الحسن علي. التنبيه والإشراف. تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي. القاهرة: دار الصاوي، ١٩٣٨.
- المسعودي، علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق كمال حسن مرعي. بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥.
- ميكيل، أندري. جغرافيا دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر. ترجمة إبراهيم خوري. دمشق: دار إشبيلية، ١٩٨٥.
- هارون، عبد السلام (محقق). نواذر المخطوطات، ط ٢. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٣.

هنتش، تييري. الشرق المتخيّل: رؤية الغرب إلى الشرق  
المتوسطي. ترجمة غازي برو وخليل أحمد خليل. بيروت:  
الفارابي، ٢٠٠٤.

هْيْلند، روبرت. تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر  
البرونزي إلى صدر الإسلام ٣٢٠٠ق.م-٦٣٠م. ترجمة  
عدنان حسن. دمشق: قدمس، ٢٠١٠.

وات، مونتغمري. محمد في مكة. ترجمة: عبد الرحمن عبد الله  
الشيخ. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.

الواقدي، محمد بن عمر. الردة مع نبذة من فتوح العراف وذكر  
المثنى ابن حارثة الشيباني، تحقيق يحيى الجبوري.  
بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.

الواقدي، محمد بن عمر، كتاب المغازي. تحقيق مارسدن  
جونس. ط ٢. بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٤.

اليقوبي، أبو العباس أحمد. تاريخ اليعقوبي. تحقيق عبد الأمير  
مهنّا. بيروت: الأعلمي، ٢٠١٠.

### مقالات:

بياتريكس، أسماء العريف. «الآخر أو الجانب الملعون». في:  
الطاهر ليب (تحرير). صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا  
إليه. ط ٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨.  
ص ٨٩-٩٨.

عمامو، حياة. «السيرة النبوية بين روايتها ومؤلفيها». أسطور  
للدراستات التاريخية. العدد ٤ (يوليو ٢٠١٦)، ص ٢٥-٤٥.  
لبيب، الطاهر. «الآخر في الثقافة العربية». في: الطاهر لبيب  
(تحرير). صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه. ط ٢.  
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨. ص ١٨٧-  
٢٢٧.

المنصوري، محمد الطاهر. «صورة البيزنطيين في الحضارة العربية  
من خلال اللغة». أسطور للدراستات التاريخية. العدد ٦  
(يوليو ٢٠١٧)، ص ٢٣-٣٢.

هنية، عبد الحميد. «بناء الدولة المجالية في البلاد التونسية  
والمغرب الأقصى وآليات الاندماج فيها في الفترة  
الحديثة». في: جدلية الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة  
والأمة في الوطن العربي. بيروت/ الدوحة: المركز العربي  
للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤. ص ١٧٢-٢٠٧.

**Books:**

Ahrweiler, Hélène. *L'idéologie Politique De L'empire Byzantin*. Paris: Presses universitaires de France, 1975.

Dauge, Yves A. *Le Barbare: Recherches sur la conception Romaine de la Barbarie et de la Civilisation*. Bruxelles: Latomus, 1985.

El-Cheikh, Nadia Maria. *Byzantium Viewed by the Arabs*. Harvard Middle Eastern Monographs XXXVI. London: Harvard Center for Middle Eastern Studies, 2004.

Fichtenau, Heinrich. *The Carolingian Empire: The Age of Charlemagne*. Peter Munz (trans) . New York: Harper Torchbooks, 1964.

Hérodote. *Histoire D'hérodote*. Élie-Ami Betan (trans.). Genève: M.- E. Carey, 1836.

Howard-Johnston, James. *Witnesses to a World Crisis: Historians and Histories of the Middle East in the Seventh Century*. Oxford: Oxford University Press, 2011.

Hoyland, Robert G. *Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the coming of Islam*. London/ New York: Routledge, 2001.

Ibn-Rašid, Ma'mar. *The Expeditions: An Early Biography of Muhammad*. Sean W. Anthony (trans.\ ed.). New York: New York Univ. Press, 2014.

- Kaegi, Walter E. *Byzantium and the Early Islamic Conquests*. Cambridge: Cambridge University Press, 1992-2005.
- Mansouri, Mohamed Tahar. *Du Voile Et Du Zunnâr: Du Code Vestimentaire En Pays D'islam*. Tunis: L'Or du temps, 2007.
- \_\_\_\_\_. *Vocabulaire historique de Byzance*. Sfax: Amal Editions, 2003.
- \_\_\_\_\_. *Eudes médiévales I: De Byzance et de l'Islam*. Mannouba: Publication de la Faculté des Lettres, des Art et des Humanité Mannouba, 2009.
- Mystikos, Nicolas Ier. *Letters*. Jenkins, J. H. & L. G. Westerink (trans.). Washington: Center for Byzantine Studies, 1973.
- Theophanes. *The Chronicle of Theophanes Confessor: Byzantine and Near Eastern History, A.d. 284-813*. Mang, Cyril et all (trans.). Oxford: Clarendon Press, 1997.
- Todorov, Tzvetan. *Nous Et Les Autres: La Reflexion Française Sur La Diversite Humaine*. Paris: Editions du Seuil, 2004.
- Tolan, John Victor. *Saracens: Islam in the medieval European imagination*. New York: Columbia University Press, 2002.
- Vasiliev, Alexander A. *History of the Byzantine Empire 324. 1453*. Madison: University of Wisconsin Press, 1952.

## Articles:

Dubuisson, Michel. "Barbares et barbarie dans le monde gréco-romain." *L'antiquité classique*. vol. 70 (2001), p. 1-16.

El-Cheikh, Nadia. "Describing the Other to Get at the Self: Byzantine Women in Arabic Sources (8th-11th Centuries)." *Journal of the Economic and Social History of the Orient*. vol. 40. no. 2 (1997), p. 239-250.

Fierro, Maribel. "Al-Asfar." *Studia Islamica*. no. 77 (1993), p. 169-181.

Mansouri, Mohamed Tahar. "L'oeil du grand rival, la ville vue par les Musulmans." *Autrement*. vol. 40 (Janvier 1996), p. 154-170.

\_\_\_\_\_. "Les Musulmans . Byzance du VIIe au XIe siècle." in: *Eudes médiévales I: De Byzance et de l'Islam*. Mannouba: Publication de la Faculté des Lettres, des Art et des Humanité Mannouba, 2009.

\_\_\_\_\_. "Byzantium and the Arabs from the VIIth to XIth Century." *Mediterranean world*, vol. (20 Juin 2010), p. 59-60.

\_\_\_\_\_. "L'image de Byzance dans les sources arabes." in: Abdeljelil Temimi (ed.). *Mélanges Louis Cardaillac*. Zaghuan: Fondation Temimi pour la Recherche Scientifique et l'Information, 1995, p. 465-488.

Morabia, Alfred. "Recherches sur quelques noms de couleur en arabe classique." *Studia Islamica*. no. 21 (1964), p. 61-99.

Vesperini, Pierre. "Le sens d'humanitas . Rome." *Mélanges de l'école française de Rome - Antiquité*. vol. 127, no. 1 (09/06/2015) . Accessed on 10/04/2017. at: <https://goo.gl/N8JSPo>

## الملاحق

### ملحق ( ١ )

جدول تأريخي لأبرز الأحداث العربية والبيزنطية  
(من القرن السادس إلى التاسع)

| التقويم<br>الميلادي | التقويم<br>الهجري        | الأحداث                                                                 |
|---------------------|--------------------------|-------------------------------------------------------------------------|
| ٥٧١                 | ٥٠ ق. هـ<br>(قبل الهجرة) | ولادة محمد لعائلة بني هاشم بمكة.                                        |
| ٥٩٦                 | ٢٥ ق. هـ                 | تزوج محمد من خديجة.                                                     |
| ٦٠٢-٦٢٨             | ١٩ ق. هـ                 | بداية الحرب البيزنطية الفارسية.                                         |
| ٦٠٣                 | ١٨ ق. هـ                 | كسرى الثاني يقود حملة على بيزنطة ويضم العديد من الأراضي في آسيا الصغرى. |
| ٦١٠                 | ١٣ ق. هـ                 | بداية الوحي وبدء تبليغ الرسالة.                                         |
| ٦١٠-٦٢٢             | ١٣-١ ق. هـ               | حياة محمد في مكة.                                                       |
| ٦٤١-٦١٠             | ١٣ ق. هـ-٢٠              | فترة حكم الإمبراطور البيزنطي هرقل.                                      |



| التقويم<br>الميلادي | التقويم<br>الهجري | الأحداث                                                                   |
|---------------------|-------------------|---------------------------------------------------------------------------|
| ٦٢٢                 | ١                 | هجرة محمد وأصحابه إلى يثرب، وهي المنطقة التي سُمِعَ فيها بعد بالمدينة.    |
| ٦٢٢-٦٢٤             | ١-٣               | تأسيس الجماعة المسلمة الأولى في المدينة.                                  |
| ٦٢٤-٦٢٧             | ٣-٥               | المعارضة الداخلية في المدينة، وطرد القبائل اليهودية الثلاث منها.          |
| ٦٢٤                 | ٢                 | معركة بدر.                                                                |
| ٦٢٥                 | ٣                 | معركة أحد.                                                                |
| ٦٢٦                 | ٥                 | دومة الجندل.                                                              |
| ٦٢٦                 | ٥                 | حصار جيش كسرى لمدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.            |
| ٦٢٧                 | ٥                 | حصار قريش للمدينة، أو ما يُعرف بغزوة الخندق.                              |
| ٦٢٧                 | ٦                 | هرقل ينتصر في حربه ضد الفرس ويضطرهم للرجوع إلى نينوى.                     |
| ٦٢٨                 | ٦                 | صلح الحديبية.                                                             |
| ٦٢٨                 | ٦                 | مقتل كسرى على يد ابنه شبرويه. و وفاة شبرويه في السنة نفسها.               |
| ٦٢٨-٦٣٥             | ٦-١٣              | دخول الإمبراطورية الفارسية الساسانية في مرحلة من الفوضى والتدهور السياسي. |

| التقويم<br>الميلادي | التقويم<br>الهجري | الأحداث                                                                      |
|---------------------|-------------------|------------------------------------------------------------------------------|
| ٦٢٨-٦٣٢             | ٦-١٠              | إخضاع الجزيرة العربية لقوة النبي محمد، وبداية مشروع التوحيد الديني والسياسي. |
| ٦٢٩                 | ٨                 | معركة مؤتة.                                                                  |
| ٦٣٠                 | ٨                 | فتح مكة.                                                                     |
| ٦٣٠                 | ٨                 | معركة حنين.                                                                  |
| ٦٣٠                 | ٨                 | حصار ثقيف.                                                                   |
| ٦٣٠/١٠<br>(٦٣١)     | ٨                 | معركة تبوك.                                                                  |
| ٦٣٢                 | ١١                | وفاة النبي محمد ودفنه في المدينة.                                            |
| ٦٣٢-٦٣٤             | ١١-١٣             | خلافة أبو بكر.                                                               |
| ٦٣٢-٦٣٣             | ١١-١٢             | حروب الردة، التي انتهت بانتصار المسلمين وتوحيد الجزيرة العربية.              |
| ٦٣٤-٦٤٤             | ١٣-٢٣             | خلافة عمر بن الخطاب.                                                         |
| ٦٣٤                 | ١٣                | معركة أجنادين، بين المسلمين وبيزنطة.                                         |
| ٦٣٦                 | ١٥                | معركة اليرموك، بين المسلمين وبيزنطة.                                         |
| ٦٣٦                 | ١٥                | معركة القادسية، بين المسلمين والفرس.                                         |
| ٦٣٦                 | ١٥                | فتح فارس.                                                                    |
| ٦٣٧                 | ١٦                | فتح الشام.                                                                   |
| ٦٣٨                 | ١٧                | فتح الجزيرة الفراتية.                                                        |
| ٦٤١                 | ٢٠                | فتح مصر.                                                                     |

| التقويم<br>الميلادي | التقويم<br>الهجري | الأحداث                                                       |
|---------------------|-------------------|---------------------------------------------------------------|
| ٦٤٨                 | ٢٧                | حملات على التخوم البيزنطية.                                   |
| ٦٤٩                 | ٢٨                | فتح قبرص، وبداية الحملة على شمال إفريقيا.                     |
| ٦٦١-٦٥٦             | ٤١-٣٥             | الحرب الأهلية الأولى، أو ما يُعرف في المصادر العربية بالفتنة. |
| ٧٥٠-٦٦١             | ١٣٢-٤١            | الخلافة الأموية.                                              |
| ٦٨٥-٦٦٨             | ٦٥-٤٧             | فترة حكم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع.                  |
| ٦٧٨-٦٧٤             | ٦٠-٥٣             | أول حصار على مدينة بيزنطة عاصمة الإمبراطورية.                 |
| ٦٩٥-٦٨٥             | ٧٥-٦٥             | فترة حكم الإمبراطور البيزنطي جوستنيان الثاني.                 |
| ٧١٨-٧١٧             | ١٠٠-٩٨            | ثاني حصار على مدينة بيزنطة عاصمة الإمبراطورية.                |
| ٧٢١                 | ١٠٢               | استرجاع بيزنطة لمناطق من آسيا الصغرى من المسلمين.             |
| ٧٤٤-٧٥٠             | ١٣٢-١٢٦           | الحرب الأهلية، التي انتهت بانتصار العباسيين.                  |
| ٧٥٠-١٢٥٨            | ٦٥٥-١٣٢           | الخلافة العباسية.                                             |
| ٧٦٢                 | ١٤٤               | تأسيس بغداد.                                                  |
| ٧٦٨                 | ١٥١               | وفاة ابن إسحاق صاحب كتاب السيرة النبوية.                      |
| ٧٧٠                 | ١٥٣               | وفاة معمر بن راشد صاحب كتاب المغازي.                          |
| ٧٨٢                 | ١٦٥               | هارون الرشيد يقود حملة ضخمة ضد بيزنطة، تصل إلى مدينة خلقدون.  |
| ٧٨٦-٨٠٩             | ١٦٩-١٩٣           | خلافة هارون الرشيد.                                           |
| ٧٩٧-٨٠٢             | ١٨٠-١٨٥           | فترة حكم الإمبراطورة البيزنطية إيرين.                         |

| التقويم<br>الميلادي | التقويم<br>الهجري | الأحداث                                                                       |
|---------------------|-------------------|-------------------------------------------------------------------------------|
| ٨٠٠                 | ١٨٣               | شارمان ملك الكارولنجيين، يُعين من طرف البابا ليون الثالث إمبراطورًا رومانيًا. |
| ٨٠٢-٨١١             | ١٨٥-١٩٥           | فترة حكم الإمبراطور البيزنطي نقفوز الأول، وإعلانه الحرب ضد هارون الرشيد.      |
| ٨٠٦                 | ١٩٠               | هارون الرشيد يقود حملة ضخمة ضد بيزنطة.                                        |
| ٨١٨                 | ٢٠٢               | وفاة ثيوفان المُعرّف المؤرخ البيزنطي. صاحب كتاب الحوليات.                     |
| ٨٢٣                 | ٢٠٧               | وفاة الواقدي صاحب كتاب المغازي وفتوح الشام.                                   |
| ٨٢٨                 | ٢١٢               | وفاة البطريك نقفوز الأول القسطنطيني صاحب كتاب الحوليات.                       |
| ٨٣٣                 | ٢١٨               | وفاة ابن هشام صاحب كتاب سيرة ابن هشام.                                        |
| ٨٣٨                 | ٢٢٣               | معركة عمورية بين العباسيين وبيزنطة.                                           |
| ٨٣٩                 | ٢٢٤               | ضم المسلمون جنوب إيطاليا ومدينة مسينة وجزيرة صقلية.                           |
| ٨٤٣                 | ٢٢٨               | فشل بيزنطة في استرجاع جزيرة كريت.                                             |
| ٨٤٤                 | ٢٢٩               | معركة موروبوتاموس بين العباسيين وبيزنطة.                                      |
| ٨٦٣                 | ٢٤٨               | معركة لالاكيون بين العباسيين وبيزنطة.                                         |
| ٨٦٨                 | ٢٥٥               | وفاة الجاحظ.                                                                  |
| ٨٧٨                 | ٢٦٤               | سقوط سرقوسة عاصمة صقلية البيزنطية على يد الأغلبة الموالين للخلافة العباسية.   |

## ملحق ( ٢ )



الجزيرة العربية قبل الإسلام (سنة ٦٠٠)

Source: Renaud Rochette, "L'émergence de l'islam,"  
Intercultural Education through Religious Studies, (20/06/  
2016), Accessed on 20/04/2017. at: <https://goo.gl/MQ75oG>.

ترجمة وتحرير ياسين اليحياوي

## ملحق ( ٣ )



### التوسع العربي فترة الإسلام المبكر

Source: Renaud Rochette, "La première expansion de l'islam de 632-750," Intercultural Education through Religious Studies, (20/06/2016), Accessed on 20/04/2017. at: <https://goo.gl/UtuJ9p>.

ترجمة وتحرير ياسين اليحياوي

## الفهارس

### فهرس الأعلام

|                   |                            |                        |                       |
|-------------------|----------------------------|------------------------|-----------------------|
| ٤٨ ، ٢٧ ، ٢٥      | ثيوفان المُعرّف            | ٤٩ ، ٤٧ ، ٣١ ، ١٨      | ابن اسحاق             |
| ٧٣                | الجاحظ                     | ٩٦ ، ٩٥                | ابن مسعود             |
| ٤٨                | خالد بن الوليد             | ٥٢ ، ٥١ ، ٤٧ ، ٣٣ ، ٣١ | ابن هشام              |
| ١٣                | خالد زيادة                 | ٩١                     | أبو السرايا           |
| ٢٩ ، ٢٨           | روبرت هُيلند               | ٤٩ ، ٤٠ ، ٢٦           | أبو بكر               |
|                   | شارلمان (حاكم الإمبراطورية | ٧٥                     | أبو حيان التوحيدي     |
| ٨٤ ، ٧٨           | الكارولينجية)              | ٧٥                     | أبو زيد البلخي        |
|                   | شيرويه (حاكم الإمبراطورية  | ٧٥                     | أبو محمد الهمداني     |
| ٤٢                | الفارسية)                  | ٧٥                     | أحمد ابن فضلان        |
| ٣١ ، ٢٨ ، ٢٥      | صالح أحمد العلي            | ٨١                     | أسماء العريف بياتريكس |
| ٨٢ ، ٧٤ ، ٦٩ ، ٦٥ | الطاهر ليب                 | ٩٥ ، ٩٤ ، ٥٦ ، ٥٥      | أندري ميكيل           |
| ٣٤ ، ٣٣           | عبد الإله بلقزيز           | ٦٣                     | إيفي دوج              |
| ٢٩                | عرفان شهيد                 | ١٣                     | ترفيتان تودوروف       |
| ١٤                | عزيز العظمة                | ١١                     | تير هنتش              |

|                            |                        |                                    |                |
|----------------------------|------------------------|------------------------------------|----------------|
| الواقدي                    | ١٩، ٣٧، ٣٩، ٤٤، ٤٥     | عمر بن الخطاب                      | ١٠٠، ١٠٢       |
| ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٩، ٦٠ |                        | الفاطمي الأصفر                     | ٩١             |
| ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٨، ٩٩     |                        | فيودور أوسبنسكي                    | ٤٢             |
| والتر كيحي                 | ٤٨                     | قسطنطين الأول (حاكم                |                |
| يزيد بن أبي سفيان          | ١٠٠                    | الإمبراطورية البيزنطية)            | ٧٧             |
| <b>فهرس الأماكن</b>        |                        | ليون الثالث (البابا الكاثوليكي)    | ٧٨، ٧٩         |
| آسيا الصغرى                | ٤٣                     | ماريبل فييرو                       | ٩١             |
| أيلة                       | ٣١، ٥٢                 | محمد (النبي)                       | ١٥، ١٩، ٢٦، ٢٧ |
| بُصْرَى                    | ٤٦                     | ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥         |                |
| بيزنطة                     | ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧، ٢٨     | ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥         |                |
| ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦ |                        | ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٢                 |                |
| ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧ |                        | محمد الطاهر المنصوري               | ١٤، ٧٦         |
| ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٣         |                        | ٨٤، ٨٥، ٩٢                         |                |
| تبوك                       | ٤٣، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣ | محمد عابد الجابري                  | ٣٥، ٥١         |
| ٨٦، ٨٨، ٩٢                 |                        | محمد نور الدين أفاية               | ١٥، ٣٠         |
| تخوم                       | ٢٦، ٣٢، ٣٨، ٤١، ٤٢     | معمر بن راشد                       | ١٩، ٨٠، ٩٥، ٩٦ |
| ٤٦، ٤٩                     |                        | ٩٩، ١٠٠                            |                |
| ثقيف                       | ٣٩                     | مونتغمري وات                       | ٢٨             |
| الجزيرة العربية            | ٢٨، ٣٧، ٣٨، ٣٩         | نادية ماريا الشيخ                  | ١٥             |
| ٤٠، ٥٢، ٥٣                 |                        | نقفوز الأول (البطريك القسطنطيني)   | ٢٥             |
| الحجاز                     | ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣     | هرقل (حاكم الإمبراطورية البيزنطية) | ٤٢             |
| ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤٥، ٤٨     |                        | ٤٥، ٤٨                             |                |
| ٤٩، ٥٠، ٥٢                 |                        | هشام جعيط                          | ٢٩، ٣٦، ٣٨، ٤١ |
| ذات أطلاح                  | ٤٧                     | ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠                 |                |



|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| إسلام مُبكر ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٧ | الشام ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٣، ٤٤   |
| إسلام ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧       | ٤٨، ٥٠، ٨٠، ٩٣، ٩٨، ٩٩         |
| ٢٩، ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠     | ١٠٢، ١٠٠                       |
| ٤٥، ٥٢                         | الطائف ٣٩، ٤١، ٤٩              |
| أصفر ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٢            | القسطنطينية ٥٦، ٧٦، ٩٣، ٩٤، ٩٦ |
| ٦٩                             | ٩٧، ١٠٢                        |
| ٦٧                             | مؤتة ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢    |
| ٤٤                             | مُدن كُبرى ٣٠                  |
| ٣٩                             | مكة ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥     |
| ٤٢، ٢٧                         | ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٦، ٤٩، ٥٢     |
| ٣٠                             | الهند ٢٨، ٣١                   |
| ٣٦                             | يثرب ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٤    |
| ٣١، ٢٥                         | ٤٥، ٥٠                         |
| ٤٩، ٤١، ٣٧، ٢٣                 | اليمن ٢٨، ٣١                   |
| ٦٧                             | فهرس العبارات الدالة           |
| ٧٤، ٦٩، ٦٧، ٦٥، ٦١             | آخر ١٥، ٢٣، ٢٨، ٣٠، ٣٧، ٤١، ٥٠ |
| ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٥                 | آلهة ٣٩                        |
| ٥٨، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٦             | اثنوغرافية ٧٥                  |
| ١٠١، ٧٨، ٧٤، ٦٩، ٦٨، ٦٧        | إثني ٣٧، ٤١                    |
| ٦٣                             | أخبار ٣٢                       |
| ٦٣                             | أديان ٢٩                       |
| ٢٥                             | أركيولوجيا ٤٩                  |
| ٨٧، ٥٢                         | إسطوغرافيا ٢٧، ٤٨              |
| ٥٢، ٥١                         | الإسكندر المقدوني ٤٢           |

|                                  |                             |                                    |                               |
|----------------------------------|-----------------------------|------------------------------------|-------------------------------|
| بنية الآخرة                      | ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٦      | روم                                | ٢٣ ، ٤٩ ، ٥٠                  |
| ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ | روماني                      | ٦٢ ، ٦٨ ، ١٠١                      |                               |
| بنية ذهنية                       | ٢٨                          | زراعة                              | ٣٤                            |
| بيزنطي                           | ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ | زكاة                               | ٣٦                            |
| ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ | السراكنة                    | ٧٦ ، ٨٣                            |                               |
| بيزنطية                          | ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩      | سرايا                              | ٣٦                            |
| ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ | سِير                        | ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٥        |                               |
| ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١                |                             | ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١                       |                               |
| تاريخ إسلامي                     | ٣١                          | صحابة                              | ٣٢                            |
| تاريخ الذهنيات                   | ٢٠                          | صقالبة                             | ٦٧                            |
| تبرع                             | ٣٦                          | صلح الحديبية                       | ٣٩                            |
| التجربة النبوية                  | ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١           | صورة                               | ٣١ ، ٣٩                       |
| تمثلات                           | ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧           | ضريبة                              | ٣٦ ، ٣٧                       |
| توحيد سياسي                      | ٤٠                          | عباسي                              | ٢٦ ، ٣١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٧   |
| جذام                             | ٤٥                          | عجم                                | ٥٨                            |
| جزية                             | ٣٦                          | عرب الشام                          | ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١                  |
| الجماعة المسلمة                  | ٣٢                          | عرب                                | ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، |
| حلفاء بيزنطة                     | ٣١ ، ٤٥ ، ٤٩                | ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، |                               |
| حوليات                           | ٢٥ ، ٢٧                     | ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، |                               |
| الخطاب النبوي                    | ٣١                          | ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢   |                               |
| الخنوق                           | ٩٨                          | عربية                              | ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، |
| ديبلوماسية                       | ٤١                          | ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، |                               |
| دين توحيدي                       | ٢٩                          | ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣                  |                               |
| رأس المال                        | ٤٤                          | علج                                | ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٥                  |
| رهبان                            | ٣٢                          | غزو                                | ٣٢ ، ٣٥                       |

|                    |                   |                            |                |
|--------------------|-------------------|----------------------------|----------------|
| ٣٨                 | مسيحي             | ٣٦                         | غزوة           |
| ٣٩                 | معركة أحد         | ٤٦                         | غساسنة         |
| ٣٩                 | معركة الخندق      | ٣٧، ٣٦                     | غنيمة          |
| ٥٣، ٣٨، ٣٥، ٣٢     | معركة بدر         | ٣٦                         | غير مسلم       |
| ٤٥، ٤٤             | معركة دومة الجندل | ٣٣                         | فئة اجتماعية   |
| ١٩، ٢٣، ٢٤، ٣١، ٣٢ | مغازي             | ٣٠، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٣         | فارس           |
| ٣٦، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٤٨ |                   | ٢٧، ٢٨، ٤٢                 | فارسي          |
| ٤٦، ٤٧             | ملحمة             | ٦٤، ٦٩                     | فانيتاس        |
| ٣٣، ٣٤، ٣٩         | مُهاجرون          | ٧١، ٧٤، ٧٥                 | فضائل          |
| ٣٢                 | نبوة              | ٦٤، ٦٩                     | فيريتاس        |
| ٨٣                 | هاجري             | ٤٢، ٦٤                     | قبائل جرمانية  |
| ٣٦                 | هبة               | ٣٣، ٣٤، ٣٥                 | قريش           |
| ٣٢                 | هجرة النبي        | ٤٧، ٥٠، ٥٢                 | قُضاة          |
| ٦٥                 | همجية             | ٣٢، ٣٥                     | قوافل تجارية   |
| ٣٩، ٤٠             | هوازن             | ٦٨                         | كارولنجي       |
| ٣٠، ٣٨، ٤٠         | هوية              | ٤٥                         | لخم            |
| ٤٠                 | وثنية             | ٢٤، ٢٨                     | ما قبل الإسلام |
| ٣٦                 | ولاء قبلي         | ٣٣                         | مؤاخاة         |
| ٣٨                 | يهود              | ١٥، ٢٤، ٢٨، ٣٠، ٣١         | مُتخيل         |
|                    |                   | ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٤٦، ٤٩، ٥١ |                |
|                    |                   | ٢٨، ٣٤                     | محطة تجارية    |
|                    |                   | ٣٦                         | مركزة سياسية   |
|                    |                   | ٢٤، ٢٥، ٣١، ٣٦، ٣٩، ٤٣     | مسلم           |
|                    |                   | ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١             |                |
|                    |                   | ٣١                         | مسيحي          |